الطيّب صـالح

موسـم الهجـرة الى الشـمال

عدت الى اهلي ياسادتي بعد غيبة طويلة ، سبعة اعوام على وجه التحديد ، كنت خلالها اتعلم في اوربا . تعلمت الكثير ، وغاب عني الكثير ، لكن تلك قصة اخرى . المهم انني عدت ، وبي شوق عظيم الى اهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل. سبعة اعوام وانا احن اليهم واحلم بهم ، ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة ان وجدتني حقيقة قائما بينهم . فرحوا بي ، وضجوا حولي ، ولم يمضِ وقت طويل حتى احسست كأن ثلجا يذوب في دخيلتي ، فكأنني مقرور طلعت عليه الشمس. ذاك دفء الحياة في العشيرة ، فقدته زمانا في بلاد « تموت من البرد حيتانها » . تعودت اذناي اصواتهم ، والفت عيناي اشكالهم . من كثرة ما فكرت فيهم في الغيبة ، قام بيني وبينهم شيء مثل الضباب اول وهلة رأيتهم . لكن الضباب راح ، واستيقظت ثاني يوم وصولي ، في فراشي الذي اعرفه ، في الغرفة التي تشهد جدرانها على ترهات حياتي في طفولتها ومطلع شبابها . وارخيت اذني للريح . ذاك لعمري صوت اعرفه ، له في بلدنا وشوشة مرحة . صوت الريح وهي تمر بالنخل غيره وهي تمر بحقول القمح . وسمعت هديل القمري ، ونظرت خلال النافذة الى النخلة القائمة في فناء دارنا ، فعلمت ان الحياة ما تزال بخير . انظر الى جذعها القوي المعتدل ، والى عروقها الضاربة في الارض ، والى الجريد الاخضر المتهدل فوق هامتها ، فأحس بالطمأنينة . احس انني لست ريشة في مهب الريح ، ولكني مثل تلك النخلة ، مخلوق له اصل ، له جذور ، له هدف .

وجاءت امي تحمل الشاي . وفرغ ابي من صلاته واوراده فجاء . وجاءت اختي ، وجاء اخواي ، وجلسنا نشرب الشاي ونتحدث ، شأننا منذ تفتحت عيناي على الحياة . نعم ، الحياة طيبة ، والدنيا كحالها لم تتغير .

فجأة تذكرت وجها رأيته بين المستقبلين لم اعرفه . سألتهم عنه ، ووصفته لهم . رجل ربعة القامة ، في نحو الخمسين او يزيد قليلا ، شعر رأسه كثيف مبيض ، ليست له لحية ، وشاربه اصغر قليلا من شوارب الرجال في البلد . رجل وسيم .

وقال ابي : « هذا مصطفى ».

مصطفى من ؟ هل هو احد المغتربين من ابناء البلد عاد ؟

وقال ابي ان مصطفى ليس من اهل البلد ، لكنه غريب جاء منذ خمسة اعوام،اشترى مزرعة وبنى بيتا وتزوج بنت محمود . رجلا في حاله ، لا يعلمون عنه الكثير .

لا اعلم تماما ماذا اثار فضولي ، لكنني تذكرت انه يوم وصولي كان صامتا . كل احد سألني وسألته . سألوني عن اوربا. هل الناس مثلنا ام يختلفون عنا ؟ هل المعيشة غالية ام رخيصة ؟ ماذا يفعل الناس في الشتاء ؟ يقولون ان النساء سافرات يرقصن علانية مع الرجال . وسألني ود الريس :«هل صحيح انهم لا يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام ؟ »

اسئلة كثيرة رددت عليها حسب علمي . دهشوا حين قلت لهم ان الاوربيين ، اذا استثنينا فوارق ضئيلة، مثلهم تماما،يتزوجون ويربون اولادهم حسب التقاليد والاصول ، ولهم اخلاق حسنة ، وهم عموما قوم طيبون.

وسألني محجوب : «هل بينهم مزارعون؟ »

وقلت له : «نعم بينهم مزارعون وبينهم كل شيء . منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم ، مثلنا تماما» . وآثرت الا اقول بقية ما خطر على بالي: «مثلنا تماما ... يولدون ويموتون ، وفي الرحلة من المهد الى اللحد يحلمون احلاماً بعضها يصدق وبعضها يخيب . يخافون من المجهول ، وينشدون الحب ،ويبحثون عن الطمأنينة في الزوج والولد . فيهم اقوياء ، وبينهم مستضعفون ؛ بعضهم اعطته الحياة اكثر مما يستحق ، وبعضهم حرمته الحياة . لكن الفروق تضيق واغلب الضعفاء لم يعودوا ضعفاء» . لم اقل لمحجوب هذا ، وليتني قلت ، فقد كان ذكيا . خفت، من غروري ، الا يفهم .

وقالت بنت مجذوب ضاحكة : « خفنا ان تعود الينا بنصرانية غلفاء» .

لكن مصطفى لم يقل شيئا . ظل يستمع في صمت ، يبتسم احيانا ، ابتسامة اذكر الآن انها كانت غامضة ، مثل شخص يحدث نفسه .

نسيت مصطفى بعد ذلك ، فقد بدأت اعيد صلتي بالناس والاشياء في القرية . كنت سعيدا تلك الايام ، كطفل يرى وجهه في المرآة لاول مرة . وكانت امي لي بالمرصاد ، تذكّرني بمن مات ، لاذهب واعزي ، وتذكّرني بمن تزوج ، لاذهب واهنىء . جبت البلد طولا وعرضا معزيا ومهنئا . ويوما ذهبت الى مكاني الاثير ، عند جذع شجرة طلح على ضفة النهر . كم عدد الساعات التي قضيتها في طفولتي تحت تلك الشجرة ، ارمي الحجارة في النهر واحلم ، ويشرد خيالي في الافق البعيد ؟ اسمع انين السواقي على النهر ، وتصايح الناس في الحقول ، وخوار ثور او نهيق حمار . كان الحظ يسعدني احيانا ، فتمر

الباخرة امامي صاعدة او نازلة . من مكاني تحت الشجرة، رأيت البلد تتغير في بطء . راحت السواقي ، وقامت على ضفة النيل طلمبات لضخ الماء ، كل مكنة تؤدي عمل مائة ساقية . ورأيت الضفة تتقهقر عاما بعد عام امام لطمات الماء ، وفي جانب آخر يتقهقر الماء امامها . وكانت تخطر في ذهني احيانا افكار غريبة . كنت افكر ، وانا ارى الشاطىء يضيق في مكان ، ويتسع في مكان ، ان ذلك شأن الحياة ، تعطي بيد وتأخذ باليد الاخرى . لكن لعلني ادركت ذلك فيما بعد . انا الآن ، على اي حال ، ادرك هذه الحكمة ، لكن بذهني فقط ، اذ ان عضلاتي تحت جلدي مرنة مطواعة وقلبي متفائل . انني اريد ان آخذ حقي من الحياة عنوة ، اريد ان اعطي بسخاء ، اريد ان يفيض الحب من قلبي فيينع ويثمر . ثمة آفاق كثيرة لا بد ان تزار ، ثمة ثمار يجب ان تقطف ، كتب كثيرة تقرأ ، وصفحات بيضاء في سجل العمر ، سأكتب فيها جملا واضحة بخط جريء . وانظر الى النهر بدأ ماؤه يربد بالطمي – لا بد ان المطر هطل في هضاب الحبشة – والى الرجال قاماتهم متكئة على المحاريث ، او منحنية على المعاول . وتمتلىء عيناي بالحقول المنبسطة كراحة اليد الى طرف الصحراء حيث تقوم البيوت . اسمع طائرا يغرد ، او كلبا ينبح ، او صوت فأس في الحطب – واحس بالاستقرار . احس انني مهم، وانني مستمر، ومتكامل . « لا ... لست انا الحجر يلقى في الماء ، لكنني البذرة تبذر في الحقل » . واذهب الى جدي ، فيحدثني عن الحياة قبل اربعين عاما ، قبل خمسين عاما ، لا بل ثمانين ، فيقوى احساسي بالامن . كنت احب جدي ، ويبدو انه كان يؤثرني . ولعل احد اسباب صداقتي معه ، انني كنت منذ صغري تشحذ خيالي حكايات الماضي ، وكان جدي يحب ان يحكي . ولما سافرت خفت ان يموت في غيبتي . وكنت حين يلم بي الحنين الى اهلي ، اراه في منامي . قلت له ذلك ، فضحك وقال : « حدثني عراف وانا شاب ، انني اذا جاوزت عمر النبوة – يعني الستين – فانني سأصل المائة » . وحسبنا عمره ، انا وهو فوجدنا انه بقي له نحو من اثني عشر عاما .

كان جدي يحدثني عن حاكم غاشم ، حكم ذلك الاقليم ايام الاتراك . ولست اعلم ما الذي دفع بمصطفى الى ذهني ، لكنني تذكرته بغتة ، فقلت اسأل عنه جدي ، فهو عليم بحسب كل احد في البلد ونسبه ، بل باحساب وانساب مبعثرة قبلي وبحري، اعلى النهر واسفله . لكن جدي هز رأسه وقال انه لا يعلم عنه سوى انه من نواحي الخرطوم ، وانه جاء الى البلد منذ نحو خمسة اعوام ، واشترى ارضا تفرق وارثوها ، ولم تبق منهم الا امرأة . فاغراها الرجل بالمال واشتراها منها . ثم قبل اربعة اعوام زوّجه محمود احدى بناته . قلت لجدي : « اي بناته ؟ » فقال : « اظنها حسنه » . وهز جدي رأسه وقال : « تلك القبيلة . لا يبالون لمن يزوجون بناتهم » . لكنه اردف ، كأنه يعتذر ، ان مصطفى

طول اقامته في البلد ، لم يبدُ منه شيءمنفر ، وانه يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام ، وانه يسارع « بذراعه وقدحه في الافراح والاتراح » ... هكذا طريقة جدي فيالكلام.

بعد هذا بيومين ، كنت وحدي اقرأ وقت القيلولة . كانت امي واختي تلغطان مع بعض النسوة في اقصى البيت ، وكان ابي نائما ، وقدخرج اخواي لشأن ما . فخلوت بنفسي . سمعت نحنحة خارج البيت ، فقمت ، فاذا هو مصطفى ، يحمل بطيخة كبيرة ، وزنبيلا مملوءا برتقالا . ولعله رأى الدهشة على وجهي، فقال :« ارجو الا اكون ايقظتك من نوم . لكنني قلت اجيئك بعينة من ثمر الحقل ، تذوقه. كذلك احب ان اتعرف اليك. وقت الظهيرة ليس وقت زيارة . اعذرني ».

لم يغب عني ادبه الجم ، فاهل بلدنا لا يبالون بعبارات المجاملة . يدخلون في الموضوع دفعة واحدة ، يزورونك ظهرا كان او عصرا ، لا يهمهم ان يقدموا المعاذير . رددت الود بالود ، ثم جيء بالشاي .

دققت النظر في وجهه ، وهو مطرق . انه رجل وسيم دون شك ، جبهته عريضة رحبة ، وحاجباه متباعدان ، يقومان اهلّة فوق عينيه ، ورأسه بشعره الغزير الاشيب متناسق تماما مع رقبته وكتفيه ، وانفه حاد منخاراه مليئان بالشعر . ولما رفع وجهه اثناء الحديث ، نظرت الى فمه وعينيه ، فاحسست بالمزيج الغريب من القوة والضعف في وجه الرجل . كان فمه رخوا ، وكانت عيناه ناعستين ، تجعلان وجهه اقرب الى الجمال منه الى الوسامة . ويتحدث بهدوء ، لكن صوته واضح قاطع . حين يسكن وجهه يقوى .وحين يضحك ، يغلب الضعف على القوة . ونظرت الى ذراعيه ، فكانتا قويتين ، عروقهما نافرة، لكن اصابعه كانت طويلة رشيقة ، حين يصل النظر اليهما بعد تأمل الذراع واليد ، تحس بغتة كأنك انحدرت من الجبل الى الوادي .

قلت ادعه يتحدث ، فهو لم يجيء اليّ في حمأة القيظ ، الا ليقول لي شيئا . ولعله من ناحية اخرى جاء بوازع من حسن النية . لكنه قطع عليّ حدسي، فقال : « اعلك الوحيد من اهل البلد ، الذي لم اسعد بالتعرف اليه من قبل » . لماذا لا يترك هذا الادب ، ونحن في بلد اذا غضب فيها الرجال ، قال بعضهم لبعض : يا ابن الكلب .

« سمعت كثيرا عنك من اهلك واصدقائك » — لا غرو ، فقد كنت اعد نفسي زينة الشباب في البلد .

« قالوا انك نلت شهادة كبيرة — ماذا تسمونها ؟ الدكتوراه ؟ » يقول لي ماذا تسمونها ؟ لم يعجبني ذلك ، فقد كنت احسب ان الملايين العشرة في القطر كلهم سمعوا بانتصاري .

« يقولون انك لامع منذ صغرك » .

« العفو » — هكذا قلت ، لكنني ، والحق يقال ، كنت تلك الايام مزهوا بنفسي ، حسن الظن بها.

« دكتوراه . هذا شيء كبير » .

فقلت له ، وانا اتصنع التواضع ، ان الامر لا يعدو انني قضيت ثلاثة اعوام ، انقب في حياة شاعر مغمور من شعراء الانكليز. واغتظت، لا اخفي عليكم انني اغتظت ، حين ضحك الرجل ملء وجهه ، وقال :

« نحن هنا لا حاجة لنا بالشعر . لو انك درست علم الزراعة او الهندسة او الطب ، لكان خيرا » . انظر كيف يقول « نحن » ولا يشملني بها ، مع العلم بان البلد بلدي ، وهو — لا انا — الغريب .

لكنه ابتسم في وجهي برقة ، ولاحظت كيف طغى الضعف في وجهه على القوة ، وكيف ان عينيه في الواقع جميلتان كعيني انثى ، وقال :

« لكن نحن مزارعون نفكر فيما يعنينا، انما العلم، مهما كان، ضروري لرفعة الوطن».

صمت برهة ، فازدحمت اسئلة كثيرة في رأسي : من اين هو ؟ ولماذا استقر في هذه البلد ؟ وما هي قصته ؟ لكنني آثرت التريث ، واسعفني هو فقال :

« الحياة في هذه البلد هينة خيرة . الناس طيبون عشرتهم سهلة » .

فقلت له : « انهم يذكرونك بالخير . جدي يقول انك رجل فاضل » .

ضحك حينئذ ، ربما لانه تذكر مقابلة له مع جدي ، وبدا كأنه سرّ من قولي، وقال:

« جدك ... ذاك رجل . ذاك رجل ... تسعون عاما وقامته منتصبة ، ونظره حاد، وكل سنّ في فمه . يقفز فوق الحمار خفيفا ، ويمشي من بيته للمسجد في الفجر . هاه . ذاك رجل » . كان مخلصا وهو يقول هذا . ولم لا ؟ وجدي ، في واقع الامر ، اعجوبة .

وخفت ان يفلت الرجل قبل ان اعلم عنه شيئا — الى هذا الحد بلغ فضولي — فجرى السؤال على لساني قبل ان افكر :

« هل صحيح انك من الخرطوم ؟ »

وفوجيء الرجل قليلا ، وخيل لي ان ما بين عينيه قد تعكر ، لكنه بسرعة ومهارة عاد الى هدوئه ، وقال لي وهو يتعمد ان يبتسم :

« من ضواحي الخرطوم في الواقع . قل الخرطوم » .

وصمت برهة قصيرة ، وكأنه يناقش بينه وبين نفسه ، هل يصمت ام يعطيني المزيد . ثم رأيت الطيف الساخر يحوم حول عينيه ، تماما كما رأيته اول يوم، وقال وهو ينظر اليّ وجها قبالة وجه :

« كنت في الخرطوم اعمل في التجارة . ثم لاسباب عديدة ، قررت ان اتحول للزراعة. كنت طول حياتي اشتاق للاستقرار في هذا الجزء من القطر ، لا اعلم السبب . وركبت الباخرة ، وانا لا اعلم وجهتي . ولما رست في هذه البلد ، اعجبتني هيئتها . وهجس هاجس في قلبي : هذا هو المكان . وهكذا كان ، كما ترى . لم يخب ظني في البلد ولا اهلها » . ثم صمت ، وقام قائلا انه ذاهب للحقل ، ودعاني للعشاء في بيته بعد يومين .

ولما اوصلته للباب ، قال لي وهو يودعني ، والطيف الساخر اكثر وضوحا حول عينيه :

« جدك يعرف السر » .

ولم يمهلني حتى اسأله : « اي سر يعرفه جدي ؟ جدي ليست له اسرار » . ولكنه مضى مبتعدا بخطوات نشيطة متحفزة ، رأسه يميل قليلا الى اليسار .

ذهبت للعشاء فوجدت محجوبا ، والعمدة ، وسعيد التاجر ، وابي. تعشينا دون ان يقول مصطفى شيئا يثير الاهتمام . كان كعادته يسمع اكثر مما يتكلم . كنت ، حين يخفت الحديث وحين اجد انه لا يعنيني كثيرا ، اتلفت حولي كأنني احاول ان اجد في غرف البيت وجدرانه الجواب على الاسئلة التي تدور في رأسي . لكنه كان بيتا عاديا ، ليس احسن ولا اسوأ من بيوت الميسورين في البلد . منقسم الى جزأين كبقية البيوت ، جزء للنساء ، والقسم الذي فيه « الديوان » للرجال . ورأيت الى يمين الديوان غرفة من الطوب الاحمر ، مستطيلة الشكل ، ذات نوافذ خضراء . سقفها لم يكن مسطحا كالعادة ، ولكنه كان مثلثا كظهر الثور .

قمنا انا ومحجوب وتركنا الباقين . وفي الطريق سألت محجوب عن مصطفى . لم يخبرني بجديد لكنه قال : « مصطفى رجل عميق » .

قضيت في البلد شهرين ، كنت خلالهما سعيدا . وقد جمعتني الصدف بمصطفى عدة مرات . مرة دعيت لحضور اجتماع لجنة المشروع الزراعي . دعاني محجوب ، رئيس اللجنة ، وقد كان صديقي ، نشأنا معا منذ طفولتنا . دخلت عليهم فكان مصطفى بينهم ، وكانوا يبحثون امرا يتعلق بتوزيع الماء على الحقول . ويبدو ان بعض الناس ، ومنهم من هو عضو في اللجنة ، كانوا يفتحون الماء في حقولهم قبل الموعد المحدد لهم . واحتد النقاش وتصايحوا بعضهم على بعض . وفجأة رأيت مصطفى يهب واقفا . هدأ اللغط واستمعوا اليه باحترام زائد . وقال مصطفى ان الخضوع للنظام في المشروع امر مهم ، والا اختلطت الامور وسادت الفوضى ، وان على اعضاء اللجنة خاصة ان يكونوا قدوة حسنة لغيرهم ، فاذا خالفوا القانون عوقبوا كبقية الناس . ولما فرغ من كلامه هز اغلب اعضاء اللجنة

رؤوسهم استحسانا ، وصمت من عناهم الكلام .

لم يكن ثمة ادنى شك في ان الرجل من عجينة اخرى ، وانه احقهم برئاسة اللجنة ، لكن ربما لانه ليس من اهل البلد لم ينتخبوه .

بعد هذا بنحو اسبوع ، حدث شيء اذهلني . دعاني محجوب لمجلس شراب . وبينما نحن نسمر جاء مصطفى يكلم محجوبا في شأن من شؤون المشروع . دعاه محجوب ان يجلس فاعتذر ، ولكن محجوبا حلف عليه بالطلاق . مرة اخرى لاحظت سحابة التبرم تنعقد ما بين عينيه ، ولكنه جلس ، وعاد بسرعة الى هدوئه الطبيعي . وناوله محجوب كأسا من الشراب ، فتردد برهة ثم امسك بها ووضعها الى جانبه دون ان يشرب منها . ومرة اخرى اقسم محجوب ، فشرب مصطفى . كنت اعرف محجوبا متهورا ، فخطر لي ان امنعه عن مضايقة الرجل ، اذ من الواضح انه غير راغب في الجلسة اصلا . لكن خاطرا آخر هجس في ذهني ، فتوقفت . شرب مصطفى الكأس الاولى باشمئزاز واضح ، شربها بسرعة ، كأنها دواء مقيت . لكنه لما وصل الى الكأس الثالثة ، اخذ يبطىء ، ويمص الشراب مصا ، بلذة . حينئذ ارتخت عضلات وجهه ، وغاب التوتر في اركان فمه ، واصبحت عيناه حالمتين ناعستين ، اكثر من ذي قبل . القوة التي تحسها في رأسه وجبهته وانفه ، ضاعت تماما ، في الضعف الذي سال ، مع الشراب ، على عينيه وفمه . وشرب مصطفى كأسا رابعة ، وكأسا خامسة . لم يعد في حاجة الى تشجيع ، لكن محجوبا كان يحلف بالطلاق على اي حال . دفن مصطفى قامته في المقعد ، ومدد رجليه ، وامسك الكأس بكلتا يديه ، وسرحت عيناه ، كما خيل لي ، في آفاق بعيدة . ثم ، فجأة ، سمعته يتلو شعرا انكليزيا ، بصوت واضح ونطق سليم . قرأ قصيدة وجدتها فيما بعد بين قصائد عن الحرب العالمية الاولى :

« هؤلاء نساء فلاندرز
ينتظرن الضائعين ،
ينتظرن الضائعين الذين ابداً لن يغادروا الميناء ،
ينتظرن الضائعين الذين ابداً لن يجيء بهم القطار ،
الى احضان هؤلاء النسوة ، ذوات الوجوه الميتة ،
ينتظرن الضائعين ، الذين يرقدون موتى في الخندق والحاجز والطين ،
في ظلام الليل .
هذه محطة تشارنغ كروس . الساعة جاوزت الواحدة .
ثمة ضوء ضئيل ،

ثمة الم عظيم » .

بعد ذلك تأوه ، وهو ما يزال ممسكا بالكأس بين يديه ، وعيناه سارحتان ، في آفاق داخل نفسه .

اقول لكم ، لو ان عفريتا انشقت عنه الارض فجأة ، ووقف امامي ، عيناه تقدحان اللهب ، لما ذعرت اكثر مما ذعرت . وخامرني ، بغتة ، شعور فظيع ، شيء مثل الكابوس ، كأننا ، نحن الرجال المجتمعين في تلك الغرفة ، لم نكن حقيقة ، انما وهما من الاوهام . وقفزت ، ووقفت فوق الرجل ، وصحت فيه : « ما هذا الذي تقول ؟ ما هذا الذي تقول ؟ » نظر اليّ نظرة جامدة ، لا ادري كيف اصفها ، لكن لعلها كانت خليطا من الاحتقار والضيق . ودفعني بعنف بيده ، ثم هب واقفا ، وخرج من الغرفة في خطوات ثابتة ، مرفوع الرأس ، كأنه شيء ميكانيكي . كان محجوب مشغولا ، يضحك مع بقية من في المجلس ، فلم ينتبه لما حدث .

ذهبت اليه ثاني يوم في حقله ، فوجدته مكبّا يحفر الارض حول شجرة ليمون . كان مرتديا سروالا من الكاكي قصيرا متسخا ، وقميصا من الدبلان يصل الى ركبتيه ، وعلى وجهه بقع من الطين . حياني بادبه الجم كعادته وقال لي : «بعض فروع هذه الشجرة تثمر ليمونا ، وبعضها يثمر برتقالا » . فقلت له بالانكليزي ، عمدا : «شيء مدهش» . فنظر اليّ مستغربا وقال : « ماذا ؟ » فاعدت الجملة . ضحك ، وقال لي : « هل انستك اقامتك الطويلة في انكلترا العربي ، ام تحسب اننا خواجات ؟ » قلت له : « لكنك ليلة امس قرأت الشعر باللغة الانكليزية » .

غاظني صمته . فقلت له : « من الواضح انك شخص آخر غير ما تزعم . من الخير ان تقول لي الحقيقة » . لم يبدُ عليه انه تأثر بالتهديد الذي ضمنته كلامي ، ومضى يحفر حول الشجرة . ولما فرغ من حفره ، قال وهو ينفض الطين عن يديه دون ان ينظر اليّ :

«لا ادري ماذا قلت وماذا فعلت في الليلة الماضية . السكران لا يؤاخذ على كلامه . اذا كنت قلت شيئا ، فهو كخترفة النائم ، او هذيان المحموم . ليست له قيمة . انا هو هذا الشخص الذي امامك ، كما يعرفه كل احد في البلد . لست خلاف ذلك ، وليس عندي شيء اخفيه» .

ذهبت الى البيت ، ورأسي يضج بالافكار . انا واثق ان وراء «مصطفى» قصة ، شيئا لا يود ان يبوح به . هل خانتني اذناي ليلة البارحة؟ الشعر الانكليزي الذي قرأه ، كان حقيقة . لم اكن سكرانا ، ولم اكن نائما ، وصورته وهو جالس في ذلك المقعد ، ممددا رجليه ، ممسكا بالكأس بكلتا يديه ، صورة واضحة لا مراء فيها . هل احدث ابي ؟ هل اقول لمحجوب ؟ لعل الرجل قتل احدا في مكان ما وفر من السجن ؟ لعله ... لكن اية

اسرار في هذه البلد ؟ لعله فقد ذاكرته ؟ يقال ان بعض الناس يصابون « بالامنيزيا » اثر حادث . واخيرا قررت ان امهله يومين او ثلاثة ، فاذا لم يأتني بالحقيقة ، كان لي معه شأن آخر .

لم يطل انتظاري ، فقد جاءني مصطفى عشية ذلك اليوم . وجد ابي واخويّ ايضا ، فقال انه يريد ان يحدثني على انفراد . قمت معه ، فقال لي : «هل تحضر الى بيتي مساء غد ؟ اريد ان اتحدث اليك». ولما عدت سألني ابي : «ماذا يريد مصطفى؟» فقلت له انه يريدني ان افسر له عقدا بملكية ارض له في الخرطوم .

رحت اليه عند المغيب ، فوجدته وحده ، امامه آنية شاي . عرض عليّ الشاي فابيت ، فقد كنت في الحقيقة اتعجل سماع القصة . لا بد انه قرر ان يقول الحقيقة . اعطاني سيجارة فقبلتها .

تفرست في وجهه وهو ينفث الدخان ببطء ، فبدا هادئا قويا . ابعدت الفكرة ، وانا انظر في وجهه ، ان يكون قاتلا . استعمال العنف يترك اثراً في الوجه لاتخطئه العين. اما انه فقد ذاكرته ، فهذا محتمل . واخير بدأ مصطفى يتحدث ، ورأيت الطيف الساخر حول عينيه اوضح من اي وقت رأيته فيه. شيء محسوس ، كأنه لمع البرق .

«ساقول لك كلاما لم اقله لاحد من قبل . لم اجد سببا لذلك قبل الآن. قررت هذا حتى لا يجمح خيالك ، وانت درست الشعر». ضحك حتى يخفف حدة الاحتقار التي بدت في صوته وهو يقول هذا .

«خفت ان تذهب وتتحدث الى الآخرين . تقول لهم انني لست الرجل الذي ازعم . فيحدث ... يحدث بعض الحرج ، لي ولهم . لذا فان لي عندك رجاء واحدا. ان تعدني بشرفك ، ان تقسم لي بانك لن تبوح لمخلوق بشيء مما ساحدثك به الليلة» . ونظر اليّ نظرة مركزة . فقلت له :

« هذا يعتمد على ما ستقوله لي . كيف اعدك وانا لا اعلم عنك شيئا ؟ »

فقال : « انني اقسم لك بان شيئا مما ساقوله لك لن يؤثر على وجودي في هذه البلد . انني رجل في كامل عقلي ، مسالم، لا احب لهذه البلد واهلها الا الخير » .

لا اكتمك انني ترددت . لكن اللحظة كانت مشحونة بالاحتمالات ، وكان فضولي عارما ليس له حد . خلاصة القول انني وعدت واقسمت ، فدفع مصطفى اليّ برزمة اوراق واومأ لي ان انظر فيها . فتحت ورقة فاذا هي وثيقة ميلاده . مصطفى سعيد ، من مواليد الخرطوم ، ١٦ اوغسطس عام ١٨٩٨... الاب متوفى ، الام فاطمة عبدالصادق. فتحت بعد ذلك جواز سفره ، الاسم ، المولد ، البلد ، كما في شهادة الميلاد . المهنة

« طالب » . تاريخ صدور الجواز عام ١٩١٦ في القاهرة وجدد في لندن عام ١٩٢٦ . كان ثمة جواز سفر آخر ، انكليزي ، صدر في لندن عام ١٩٢٩ . قلبت صفحاته فاذا اختام كثيرة ، فرنسية والمانية وصينية ودنماركية . كل هذا شحذ خيالي بشكل لا يوصف ، فلم استطع المضي في تقليب صفحات جواز السفر ، وانصرف ذهني عن بقية الاوراق . ولا بد ان وجهي كان مشحونا بالترقب حين نظرت اليه . مضى مصطفى ينفث في دخان سيجارته برهة ، ثم قال :

انهـا قصة طويلة . لكنني لن اقول لك كل شيء . وبعض التفـاصيل لن تهمك كثيرا ، وبعضها ... المهم انني كما ترى ولدت في الخرطوم . نشأت يتيما ، فقد مات ابي قبل ان اولد ببضعة اشهر ، لكنه ترك لنا ما يستر الحال . كان يعمـل في تجارة الجمال . لم يكن لي اخوة ، فلم تكن الحياة عسيرة عليّ وعلى امي . حين ارجع الآن بذاكرتي ، اراها بوضوح ، شفتاها الرقيقتان مطبقتان في حزم ، وعلى وجهها شيء مثل القناع . لا ادري . قناع كثيف ، كأن وجهها صفحة بحر ، هل تفهم ؟ ليس له لون واحد بل الوان متعددة ، تظهر وتغيب ، وتتمازج . لم يكن لنا اهل . كنا ، انا وهي ، اهلا بعضنا لبعض . كانت كأنها شخص غريب جمعتني به الظروف صدفة في الطريق . لعلني كنت مخلوقا غريبا ، او لعل امي كانت غريبة . لا ادري . لم نكن نتحدث كثيرا ، وكنت ، ولعلك تعجب ، احس احساسا دافئا بانني حر ، بانه ليس ثمة مخلوق ، اب او ام ، يربطني كالوتد الى بقعة معينة ومحيط معين . كنت اقرأ وانام ، اخرج وادخل ، العب خارج البيت ، اتسكع في الشوارع ، ليس ثمة احد يأمرني او ينهاني . الا انني منذ صغري ، كنت احس بانني ... انني مختلف . اقصد انني لست كبقية الاطفال في سني ، لا اتأثر بشيء لا ابكي اذا ضربت ، لا افرح اذا اثنى عليّ المدرس في الفصل ، لا اتألم لما يتألم له الباقون . كنت مثل شيء مكور من المطاط ، تلقيه في الماء فلا يبتل ، ترميه على الارض فيقفز . كان ذلك الوقت اول عهدنا بالمدارس . اذكر الآن ان الناس كانوا غير راغبين فيها . كانت الحكومة تبعث اعوانها يجوبون البلاد والاحياء ، فيخفي الناس ابناءهم . كانوا يظنونها شرا عظيما جاءهم مع جيوش الاحتلال . كنت العب مع الصبية خارج دارنا ، فجاء رجل على فرس ، في زيّ رسمي ، ووقف فوقنا . جرى الصبية ، وبقيت انظر الى الفرس والى الرجل فوقه . سألني عن اسمي فأخبرته . قال لي كم عمرك ، فقلت له لا ادري . قال لي : « هل تحب ان تتعلم في المدرسة ؟ » قلت له : « ما هي المدرسة ؟ » فقال

لي : « بناء جميل من الحجر وسط حديقة كبيرة على شاطىء النيل . يدق الجرس وتدخل الفصل مع التلاميذ . تتعلم القراءة والكتابة والحساب» . قلت للرجل : « هل البس عمامة كهذه ؟ » واشرت الى شيء كالقبة فوق رأسه . فضحك الرجل وقال لي : « هذه ليست عمامة . هذه برنيطة . قبعة » . وترجل من على فرسه ووضعها فوق رأسي ، فغاب وجهي كله فيها . ثم قال الرجل : « حين تكبر ، وتخرج من المدرسة ، وتصير موظفا في الحكومة ، تلبس قبعة كهذه » . قلت للرجل : « اذهب للمدرسة » . اردفني الرجل خلفه فوق الحصان ، وحملني الى مكان ، كما وصفه ، من الحجر ، على ضفة النيل ، تحيط به اشجار وازهار . ودخلنا على رجل ذي لحية ، يلبس جبة ، فقام وربت على رأسي ، وقال لي : « لكن اين ابوك ؟» فقلت له ان ابي ميت . فقال لي : « من وليّ امرك ؟ » قلت له : « اريد ان ادخل المدرسة » . نظر اليّ الرجل بعطف ،ثم قيدوا اسمي في سجل ،وسألوني كم عمري فقلت لهم لا ادري . وفجأة دق الجرس . فررت منهم ، ودخلت احدى الحجرات. فجاء الرجلان وساقاني الى حجرة اخرى واجلساني في مقعد بين صبية آخرين. عدت الى امي في الظهر فسألتني اين كنت ، فحكيت لها القصة . نظرت اليّ برهة نظرة غامضة ، كأنها ارادت ان تضمني الى صدرها ، فقد رأيت وجهها يصفو برهة ، وعينيها تلمعان ، وشفتيها تفتران كأنها تريد ان تبتسم ، او تقول شيئا . لكنها لم تقل شيئا . وكانت تلك نقطة تحول في حياتي . كان ذلك اول قرار اتخذته ، بمحض ارادتي .

انني لا اطلب منك ان تصدق ما اقوله لك . لك ان تعجب وان تشك . انت حر . هذه وقائع مضى عليها وقت طويل ، وهي كما ترى الآن ، لا قيمة لها . اقولها لك لانها تحضرني ، لان الحوادث بعضها يذكر بالبعض الآخر .

المهم انني انصرفت بكل طاقاتي لتلك الحياة الجديدة. وسرعان ما اكتشفت في عقلي مقدرة عجيبة على الحفظ والاستيعاب والفهم . اقرأ الكتاب فيرسخ جملة في ذهني . ما البث ان اركز عقلي في مشكلة الحساب حتى تتفتح لي مغالقها، تذوب بين يدي كأنها قطعة ملح وضعتها في الماء . تعلمت الكتابة في اسبوعين ، وانطلقت بعد ذلك لا الوي على شيء. عقلي كأنه مدية حادة ، تقطع في برود وفعالية . لم ابالِ بدهشة المعلمين واعجاب رفقائي او حسدهم . كان المعلمون ينظرون اليّ كأنني معجزة ، وبدأ التلاميذ يطلبون ودي . لكنني كنت مشغولا بهذه الآلة العجيبة التي اتيحت لي . وكنت باردا كحقل جليد ، لا يوجد في العالم شيء يهزني .

طويت المرحلة الاولى في عامين ، وفي المدرسة الوسطى اكتشفت الغازا اخرى ، منها اللغة الانكليزية . فمضى عقلي يعض ويقطع ، كأسنان محراث . الكلمات والجمل تتراءى

لي كأنها معادلات رياضية ، والجبر والهندسة كأنها ابيات شعر . العالم الواسع اراه في دروس الجغرافيا ، كأنه رقعة شطرنج . كانت المرحلة الوسطى اقصى غاية يصل اليها المرء في التعليم تلك الايام . وبعد ثلاثة اعوام ، قال لي ناظر المدرسة ، وكان انكليزيا : «هذه البلد لا تتسع لذهنك، فسافر . اذهب الى مصر او لبنان او انكلترا . ليس عندنا شيء نعطيك اياه بعد الآن ». قلت له على الفور : « اريد ان اذهب الى القاهرة » . فسهل لي ، فيما بعد ، السفر ، والدخول مجانا في مدرسة ثانوية في القاهرة ، ومنحة دراسية من الحكومة . وهذه حقيقة في حياتي ، كيف قيضت الصدف لي قوما ساعدوني واخذوا بيدي في كل مرحلة ، قوما لم اكن احس تجاههم باي احساس بالجميل . كنت اتقبل مساعداتهم ، كأنها واجب يقومون به نحوي .

حين اخبرني ناظر المدرسة بان كل شيء اعد لسفري للقاهرة، ذهبت الى امي وحدثتها. نظرت اليّ مرة اخرى، تلك النظرة الغريبة . افترت شفتاها لحظة كأنها تريد ان تبتسم، ثم اطبقتها ، وعاد وجهها كعهده ، قناعا كثيفا ، بل مجموعة اقنعة . ثم غابت قليلا ، وجاءت بصرة وضعتها في يدي ، وقالت لي :

« لو ان اباك عاش ، لما اختار لك غير ما اخترته لنفسك . افعل ما تشاء . سافر . او ابقَ ، انت وشأنك . انها حياتك ، وانت حر فيها . في هذه الصرة مال تستعين به ». كان ذلك وداعنا. لا دموع ولا قبل ولا ضوضاء . مخلوقان سارا شطرا من الطريق معا، ثم سلك كل منهما سبيله. وكان ذلك في الواقع آخر ما قالته لي ، فانني لم ارها بعد ذلك. بعد سنوات طويلة ، وتجارب عدة ، تذكرت تلك اللحظة ، وبكيت . اما الآن ، فانني لم اشعر بشيء على الاطلاق . جمعت متاعي في حقيبة صغيرة ، وركبت القطار . لم يلوح لي احد بيده ولم تنهمر دموعي لفراق احد . وضرب القطار في الصحراء ، ففكرت قليلا في البلد التي خلفتها ورائي ، فكانت مثل جبل ضربت خيمتي عنده ، وفي الصباح قلعت الاوتاد واسرجت بعيري ، وواصلت رحلتي . وفكرت في القاهرة ونحن في وادي حلفا ، فتخيلها عقلي جبلا آخر ، اكبر حجما ، سأبيت عنده ليلة او ليلتين ، ثم اواصل الرحلة الى غاية اخرى .

اذكر انني جلست في القطار قبالة رجل في مسوح وعلى رقبته صليب كبير اصفر . ابتسم الرجل في وجهي وتحدث معي باللغة الانكليزية ، فاجبته . اذكر تماما ان الدهشة بدت على وجهه واتسعت حدقتا عينيه اول ما سمع صوتي . دقق النظر في وجهي وقال لي: « كم سنك ؟ » فقلت له خمسة عشر . كنت في الواقع في الثانية عشرة، لكنني خفت ان يستقلني . فقال الرجل : «الى اين تقصد ؟» فقلت له : « انني ذاهب للالتحاق بمدرسة ثانوية في القاهرة » . فقال « وحدك ؟ » قلت نعم . نظر اليّ مرة اخرى نظرة طويلة

فاحصة ، فقلت له قبل ان يتكلم : «انني احب السفر وحدي . مم اخاف ؟» حينئذ قال لي جملة لم احفل بها كثيرا وقتذاك . واضاءت وجهه ابتسامة كبيرة واردف : « انك تتحدث اللغة الانكليزية بطلاقة مذهلة ».

وصلت القاهرة ، فوجدت مستر روبنسن وزوجته في انتظاري ، فقد اخبرهما مستر ستكول بقدومي . صافحني الرجل وقال لي : « كيف انت يا مستر سعيد ؟ » فقلت له : « انا بخير يا مستر روبنسن » . ثم قدمني الى زوجته . وفجأة احسست بذراعي المرأة تطوقانني ، وبشفتيها على خدي . في تلك اللحظة ، وانا واقف على رصيف المحطة ، وسط دوامة من الاصوات والاحاسيس ، وزندا المرأة ملتفان حول عنقي ، وفمها على خدي ، ورائحة جسمها ، رائحة اوربية غريبة ، تدغدغ انفي ، وصدرها يلامس صدري ، شعرت وانا الصبي ابن الاثني عشر عاما بشهوة جنسية مبهمة لم اعرفها من قبل في حياتي ، واحسست كأن القاهرة ، ذلك الجبل الكبير الذي حملني اليه بعيري ، امرأة اوربية ، مثل مسز روبنسن تماما ، تطوقني ذراعاها ، يملأ عطرها ورائحة جسدها انفي. كان لون عينيها كلون القاهرة في ذهني ، رماديا ، اخضر ، يتحول بالليل الى وميض كوميض اليراعة .

كانت مسز روبنسن تقول لي : « انت يا مستر سعيد انسان خالٍ تماما من المرح » . صحيح انني لم اكن اضحك . وتضحك مسز روبنسن وتقول لي : « الا تستطيع ان تنسى عقلك ابدا ؟ » ويوم حكموا عليّ في الاولد بيلي بالسجن سبع سنوات ، لم اجد صدرا غير صدرها أسند رأسي اليه. ربتت على رأسي وقالت :« لا تبكِ يا طفلي العزيز». لم يكن لهما اطفال . كان مستر روبنسن يحسن اللغة العربية ، ويعنى بالفكر الاسلامي والعمارة الاسلامية، فزرت معهما جوامع القاهرة،ومتاحفها وآثارها . وكانت احب مناطق القاهرة اليهما ، منطقة الازهر . كنا حين تكل اقدامنا من الطواف ، نلوذ بمقهى بجوار جامع الازهر ، ونشرب عصير التمر هندي ، ويقرأ مستر روبنسن شعر المعري . كنت وقتها مشغولا بنفسي ، فلم احفل بالحب الذي اسبغاه عليّ . كانت مسز روبنسن ممتلئة الجسم ، برونزية اللون ، منسجمة مع القاهرة ، كأنها صورة منتقاة بذوق ، لتناسب لون الجدران في غرفة . وكنت انظر الى شعر ابطيها واحس بالذعر ... لعلها كانت تعلم انني اشتهيها ، لكنها كانت عذبة ، اعذب امرأة عرفتها . تضحك بمرح ، وتحنو عليّ كما تحنو ام على ابنها .

وكانا على الرصيف حين اقلعت بي الباخرة من الاسكندرية . ورأيتها من بعيد وهي تلوح لي بمنديلها ، ثم تجفف به الدمع من عينيها ، والى جوارها زوجها ، واضعا يديه على

خصره ، واكاد ارى ، حتى من ذلك البعد ، صفاء عينيه الزرقاوين . الا انني لم اكن حزينا ، كان كل همي ان اصل لندن ، جبلا آخر اكبر من القاهرة ، لا ادري كم ليلة امكث عنده . كنت في الخامسة عشرة ، يظنني من يراني في العشرين ، متماسكا على نفسي ، كأنني قربة منفوخة . وراءي قصة نجاح فذ في المدرسة ، كل سلاحي هذه المدية الحادة في جمجمتي ، وفي صدري احساس بارد جامد ، كأن جوف صدري مصبوب بالصخر . ولما ابتلعت اللجة الساحل ، وهاج الموج تحت السفينة ، واستدار الافق الازرق حوالينا ، احسست توا بالفة غامرة للبحر . انني اعرف هذا العملاق الاخضر اللامنتهي ، كأنه يمور بين ضلوعي . واستمرأت طيلة الرحلة ذلك الاحساس في اني في لا مكان ، وحدي ، امامي وخلفي الابد او لا شيء . وصفحة البحر حين يهدأ سراب آخر ، دائم التبدل والتحول ، مثل القناع الذي على وجه امي . هنا ايضا صحراء مخضرة مزرقة ممتدة ، تناديني ، تناديني . وقادني النداء الغريب الى ساحل دوفر ، والى لندن ، والى المأساة . لقد سلكت ذلك الطريق بعد ذلك عائدا . وكنت اسائل نفسي طوال الرحلة ، هل كان من الممكن تلافي شيء مما وقع ؟ وتر القوس مشدود ، ولا بد ان ينطلق السهم . وانظر الى اليسار واليمين ، الى الخضرة الداكنة ، والقرى السكسونية القائمة على حواف التلال . سقوف البيوت حمراء ، محدودبة كظهور البقر . وثمة غلالة شفافة من الضباب ، منشورة فوق الوديان . ما اكثر الماء هنا وما ارحب الخضرة . وكل تلك الالوان . ورائحة المكان غريبة ، كرائحة جسد مسز روبنسن . والاصوات لها وقع نظيف في اذني ، مثل حفيف اجنحة الطير . هذا عالم منظم ، ببيوته وحقوله واشجاره مرسومة وفقا لخطة . الغدران كذلك ، لا تتعرج ، بل تسيل بين شطآن صناعية . ويقف القطار في المحطة ، بضع دقائق . يخرج الناس مسرعين ، ويدخلون مسرعين ، ثم يتحرك القطار . لا ضوضاء . وفكرت في حياتي في القاهرة . لم يحدث شيء ليس في الحسبان . زادت معلوماتي . وحدثت لي احداث صغيرة ، واحبتني زميلة لي ثم كرهتني . وقالت لي : « انت لست انسانا . انت آلة صماء » . تسكعت في شوارع القاهرة ، وزرت الاوبرا ، ودخلت المسرح ، وقطعت النيل سابحا ذات مرة . لم يحدث شيء اطلاقا ، سوى ان القربة زادت انتفاخا ، وتوتر وتر القوس . سينطلق السهم نحو آفاق اخرى مجهولة . وانظر الى دخان القطار ، يتلاشى ، حيث تهب به الريح ، في غلالة الضباب المنتشرة في الوديان . واخذتني سنة من النوم . وحلمت انني اصلي وحدي في جامع القلعة . كان المسجد مضاء بآلاف الشمعدانات ، والرخام الاحمر يتوهج ، وانا وحدي اصلي . واستيقظت وفي انفي رائحة البخور ، فاذا القطار يقترب من لندن . القاهرة مدينة ضاحكة ، وكذلك مسز روبنسن . كانت تريدني ان اناديها باسمها الاول ، اليزابيث ، لكنني كنت اناديها دائما باسم زوجها . تعلمت منها

حب موسيقى باخ ، وشعر كيتس ، وسمعت عن مارك توين لاول مرة منها . لكنني لم اكن استمتع بشيء . وتضحك مسز روبنسن وتقول لي : « الا تستطيع ان تنسى عقلك ابدا ؟ » هل كان من الممكن تلافي شيء مما حدث ؟ كنت عائدا حينذاك . وتذكرت ما قاله لي القسيس ، وانا في طريقي الى القاهرة:« كلنا يا بني نسافر وحدنا في نهاية الامر ». كانت يده تتحسس الصليب على صدره . واضاءت وجهه ابتسامة كبيرة واردف : « انك تتحدث اللغة الانكليزية بطلاقة مذهلة » . اللغة التي اسمعها الآن ليست كاللغة التي تعلمتها في المدرسة . هذه اصوات حية ، لها جرس آخر . كان عقلي كأنه مدية حادة . لكن اللغة ليست لغتي . تعلمت فصاحتها بالممارسة . وحملني القطار الى محطة فكتوريا ، والى عالم جين مورس .

كل شيء حدث قبل لقائي اياها ، كان ارهاصا . وكل شيء فعلته بعد ان قتلتها كان اعتذارا ، لا لقتلها ، بل لاكذوبة حياتي . كنت في الخامسة والعشرين حين لقيتها ، في حفل في تشلسي . الباب ، وممر طويل يؤدي الى القاعة . فتحت الباب، وتريثت ، وبدت لعيني تحت ضوء المصباح الباهت كأنها سراب لمع في صحراء. كنت مخمورا ، كأسي بقي ثلثها ، وحولي فتاتان ، اتفحش معهما ، وتضحكان . وجاءت تسعى نحونا بخطوات واسعة ، تضع ثقل جسمها على قدمها اليمنى ، فيميل كفلها الى اليسار . وكانت تنظر اليّ وهي قادمة . وقفت قبالتي ونظرت اليّ بصلف وبرود ، وشيء آخر . وفتحت فمي لاتكلم ، لكنها ذهبت . وقلت لصاحبتي: « من هذه الانثى ؟ »

كانت لندن خارجة من الحرب ومن وطأة العهد الفكتوري . عرفت حانات تشلسي ، واندية هامبستد ، ومنتديات بلومزبري . اقرأ الشعر ، واتحدث في الدين والفلسفة ، وانقد الرسم ، واقول كلاما عن روحانيات الشرق . افعل كل شيء ، حتى ادخل المرأة في فراشي . ثم اسير الى صيد آخر. لم يكن في نفسي قطرة من المرح، كما قالت مسز روبنسن. جلبت النساء الى فراشي من بين فتيات جيش الخلاص ، وجمعيات الكويكرز ، ومجتمعات الفابيانيين . حين يجتمع حزب الاحرار او العمال او المحافظين او الشيوعيين ، اسرج بعيري واذهب . وفي المرة الثانية ، قالت لي جين مورس : « انت بشع . لم ارَ في حياتي وجها بشعا كوجهك ». وفتحت فمي لاتكلم لكنها ذهبت . وحلفت في تلك اللحظة ، وانا سكران ، انني ساتقاضاها الثمن في يوم من الايام . وصحوت وآن همند الى جواري في الفراش . اي شيء جذب آن همند اليّ؟ ابوها ضابط في سلاح المهندسين ، وامها من العوائل الثرية في لفربول . كانت صيدا سهلا . لقيتها وهي دون العشرين ، تدرس اللغات الشرقية في اكسفورد . كانت حية ، وجهها ذكي مرح وعيناها تبرقان بحب الاستطلاع . رأتني

فرأت شفقا داكنا كفجر كاذب . كانت عكسي تحن الى مناخات استوائية ، وشموس قاسية ، وآفاق ارجوانية . كنت في عينها رمزا لكل هذا الحنين . وانا جنوب يحن الى الشمال والصقيع . آن همند قضت طفولتها في مدرسة راهبات . عمتها زوجة نائب في البرلمان . حولتها في فراشي الى عاهرة . غرفة نومي مقبرة تطل على حديقة ، ستائرها وردية منتقاة بعناية ، وسجاد سندسي دافىء ، والسرير رحب مخداته من ريش النعام . واضواء كهربائية صغيرة ، حمراء ، وزرقاء ، وبنفسجية ، موضوعة في زوايا معينة . وعلى الجدران مرايا كبيرة ، حتى اذا ضاجعت امرأة ، بدا كأنني اضاجع حريما كاملا في آن واحد . تعبق في الغرفة رائحة الصندل المحروق والند ، وفي الحمام عطور شرقية نفاذة ، وعقاقير كيماوية ، ودهون ، ومساحيق ، وحبوب . غرفة نومي كانت مثل غرفة عمليات في مستشفى . ثمة بركة ساكنة في اعماق كل امرأة ، كنت اعرف كيف احركها . وذات يوم وجدوها ميتة انتحارا بالغاز ووجدوا ورقة صغيرة باسمي ، ليس فيها سوى هذه العبارة : « مستر سعيد . لعنة الله عليك » . كان عقلي كأنه مدية حادة . وحملني القطار الى محطة فكتوريا ، والى عالم جين مورس .

في قاعة المحكمة الكبرى في لندن ، جلست اسابيع استمع الى المحامين ، يتحدثون عني ، كأنهم يتحدثون عن شخص لا يهمني امره . كان المدعي العمومي سير آرثر هغنز عقل مريع ، اعرفه تمام المعرفة ، علمني القانون الجنائي في اكسفورد ، ورأيته من قبل ، في هذه المحكمة نفسها وفي هذه القاعة ، يعتصر المتهمين في قفص الاتهام اعتصارا . نادرا ما كان يفلت متهم من يده . ورأيت متهمين يبكون ويغمى عليهم ، بعد ان يفرغ من استجوابهم . لكنه هذه المرة ، كان يصارع جثة .

« هل تسببت في انتحار آن همند ؟ »

« لا ادري » .

« وشيلا غرينود ؟ »

« لا ادري » .

« وايزابيلا سيمور ؟ »

« لا ادري » .

« هل قتلت جين مورس ؟ »

« نعم » .

« قتلتها عمدا ؟ »

« نعم » .

كان صوته كأنما يصلني من عالم آخر . ومضى الرجل يرسم بحذق صورة مريعة لرجل ذئب ، تسبب في انتحار فتاتين ، وحطم امرأة متزوجة ، وقتل زوجته ؛ رجل انانى ، انصبت حياته كلها على طلب اللذة . ومرة خطر لي في غيبوتي ، وانا جالس هناك استمع الى استاذي ، برفسور ماكسول فستركين ، يحاول ان يخلصني من المشنقة ، ان اقف واصرخ في المحكمة : « هذا المصطفى سعيد لا وجود له . انه وهم ، اكذوبة . وانني اطلب منكم ان تحكموا بقتل الاكذوبة » . لكنني كنت هامدا مثل كومة رماد . ومضى برفسور ماكسول فستركين يرسم صورة فريدة لعقل عبقري دفعته الظروف الى القتل ، في لحظة غيرة وجنون . روى لهم كيف انني عينت محاضرا للاقتصاد في جامعة لندن ، وانا في الرابعة والعشرين . قال لهم ان آن همند وشيلا غرينود كانتا فتاتين تبحثان عن الموت بكل سبيل ، وانهما كانتا ستنتحران سواء قابلتا مصطفى سعيد او لم تقابلاه . « مصطفى سعيد يا حضرات المحلفين انسان نبيل ، استوعب عقله حضارة الغرب ، لكنها حطمت قلبه . هاتان الفتاتان لم يقتلهما مصطفى سعيد ولكن قتلهما جرثوم مرض عضال اصابهما منذ الف عام » . وخطر لي ان اقف واقول لهم : « هذا زور وتلفيق . قتلتهما انا . انا صحراء الظمأ . انا لست عطيلا . انا اكذوبة . لماذا لا تحكمون بشنقي فتقتلون الاكذوبة ؟ » لكن برفسور فستركين حول المحاكمة الى صراع بين عالمين ، كنت انا احدى ضحاياه . وحملني القطار الى محطة فكتوريا ، والى عالم جين مورس .

لبثت اطاردها ثلاثة اعوام . كل يوم يزداد وتر القوس توترا . قربي مملوءة هواء ، وقوافلي ظمأى ، والسراب يلمع امامي في متاهة الشوق ، وقد تحدد مرمى السهم ، ولا مفر من وقوع المأساة . وذات يوم قالت لي : « انت ثور همجي لا يكل من الطراد . انني تعبت من مطاردتك لي ، ومن جريي امامك . تزوجني » . وتزوجتها . غرفة نومي صارت ساحة حرب . فراشي كان قطعة من الجحيم . امسكها فكأنني امسك سحابا ، كأنني اضاجع شهابا ، كأنني امتطي صهوة نشيد عسكري بروسي . وما تفتأ تلك الابتسامة المريرة على فمها . اقضي الليل ساهرا ، اخوض المعركة بالقوس والسيف والرمح والنشاب ، وفي الصباح ارى الابتسامة ما فتئت على حالها ، فاعلم انني خسرت الحرب مرة اخرى . كأنني شهريار رقيق ، تشتريه في السوق بدينار ، صادف شهرزاد متسولة في انقاض مدينة قتلها الطاعون . كنت اعيش مع نظريات كينز وتوني بالنهار ، وبالليل اواصل الحرب بالقوس والسيف والرمح والنشاب . رأيت الجنود يعودون ، يملؤهم الذعر ، اين حرب الخنادق والقمل والوباء . رأيتهم يزرعون بذور الحرب القادمة في معاهدة فرساي ، ورأيت لويد جورج يضع اسس دولة الرفاهية العامة . وانقلبت المدينة الى امرأة عجيبة ،

لها رموز ونداءات غامضة ، ضربت اليها اكباد الابل ، وكاد يقتلني في طلابها الشوق . غرفة نومي ينبوع حزن ، جرثوم مرض فتاك . العدوى اصابتهن منذ الف عام ، لكنني هيجت كوامن الداء حتى استفحل وقتل . وكان المغنون يرددون اهازيج الحب الحقيقي والمرح في مسارح لستر سكوير ، فلم يخفق لها قلبي . من كان يظن ان شيلا غرينود تقدم على الانتحار ؟ خادمة في مطعم في سوهو . بسيطة حلوة المبسم ، حلوة الحديث . اهلها قرويون من ضواحي هل . اغريتها بالهدايا والكلام المعسول ، والنظرة التي ترى الشيء فلا تخطئه . جذبها عالمي الجديد عليها . دوختها رائحة الصندل المحروق والند ، ووقفت وقتا تضحك لخيالها في المرآة ، وتعبث بعقد العاج الذي وضعته كانشوطة حول جيدها الجميل . دخلت غرفة نومي بتولا بكرا ، وخرجت منها تحمل جرثوم المرض في دمها . ماتت دون ان تنبس ببنت شفة . ذخيرتي من الامثال لا تنفد . البس لكل حالة لبوسها ، شَنّتي يعرف متى يلاقي طبقه .

« أليس صحيحا انك في الفترة ما بين اكتوبر ١٩٢٢ وفبراير ١٩٢٣ ، في هـذه الفترة وحدها على سبيل المثال ، كنت تعيش مع خمس نساء في آن واحد ؟ »

« بلى » .

« وانك كنت توهم كلا منهن بالزواج ؟ »

« بلى » .

« وانك انتحلت اسما مختلفا مع كل منهن ؟ »

« بلى » .

« انك كنت حسن ، وتشارلز ، وامين ، ومصطفى ، ورتشارد ؟ »

« بلى » .

« ومع ذلك كنت تكتب وتحاضر عن الاقتصاد المبني على الحب لا على الارقام ؟ أليس صحيحا انك اقمت شهرتك بدعوتك الانسانية في الاقتصاد ؟ »

« بلى » .

ثلاثون عاما . كان شجر الصفصاف يبيض ويخضر ويصفر في الحدائق ، وطير الوقوق يغني للربيع كل عام . ثلاثون عاما وقاعة البرت تغص كل ليلة بعشاق بيتهوفن وباخ ، والمطابع تخرج آلاف الكتب في الفن والفكر . مسرحيات برنارد شو تمثل في الرويال كورت والهيماركت . كانت ايدث ستول تغرد بالشعر ، ومسرح البرنس اف ويلز يفيض بالشباب والالق . البحر في مده وجزره في بورنمث وبرايتن ، ومنطقة البحيرات تزدهي عاما بعد عام . الجزيرة مثل لحن عذب ، سعيد حزين ، في تحول سرابي مع تحول الفصول .

ثلاثون عاما وانا جزء من كل هذا ، اعيش فيه ، ولا احس جماله الحقيقي ، ولا يعنيني منه الا ما يملأ فراشي كل ليلة .

نعم . في الصيف . قالوا ان صيفا مثله لم يأتهم منذ مائة عام . وخرجت من داري يوم سبت اشمشم الهواء ، واحس بانني مقبل على صيد عظيم . وصلت ركن الخطباء في حديقة هايد بارك . كان غاصا بالخلق . وقفت عن بعد استمع الى خطيب من جزر الهند الغربية يتحدث عن مشكلة الملونين. استقرت عيني فجأة على امرأة تشرئب بعنقها لرؤية الخطيب ، فيرتفع ثوبها الى ما فوق الركبتين ، مظهرا ساقين ملتفتين من البرونز . نعم هذه فريستي . وسرت اليها ، كالقارب يسير الى الشلال . ووقفت وراءها ، والتصقت بها ، حتى احسست بحرارتها تسري اليّ . وشممت رائحة جسدها ، تلك الرائحة التي استقبلتني بها مسز روبنسن على رصيف محطة القاهرة . واقتربت منها حتى احست بي ، فالتفتت اليّ فجأة ، فابتسمت في وجهها ابتسامة لم اكن اعلم مصيرها ، لكنني عزمت على الا تضيع هباء . وضحكت ايضا ، حتى لا تنقلب الدهشة في وجهها الى عداء فابتسمت . ووقفت الى جانبها نحوا من ربع الساعة ، اضحك حين يضحكها قول الخطيب ، واضحك بصوت مرتفع لكي تسري فيها عدوى الضحك ، حتى جاءت لحظة ، احسست فيها انني وهي صرنا كفرس ومهرة ، يركضان في تناسق ، جنبا الى جنب . وهنا خرج الصوت من حلقي ، كأنه ليس صوتي : « ما رأيك في شراب ، بعيدا عن هذا الزحام والحر ؟ » ادارت رأسها بدهشة ، فابتسمت هذه المرة ابتسامة عريضة بريئة ، حتى احول الدهشة الى حب استطلاع على الاقل . وفي اثناء ذلك تفرست في وجهها ، فوجدت كل سمة من سماته يزيدني اقتناعا بان هذه فريستي . كنت اعلم ، بطبيعة المقامر ، ان تلك لحظة حاسمة . كل شيء في هذه اللحظة محتمل . وتحولت ابتسامتي الى سرور كاد يفلت زمامه من يدي حين قالت : « نعم . ولم لا ؟ » وسرنا معا ، احس بها الى جانبي وهجا من البرونز تحت شمس يوليو ، احس بها مدينة من الاسرار والنعيم . وسرني انها تضحك بسهولة . هذه السيدة ، نوعها كثير في اوربا ، نساء لا يعرفن الخوف ، يقبلن على الحياة بمرح وحب استطلاع . وانا صحراء الظمأ ، متاهة الرغائب الجنونية . وسألتني ونحن نشرب الشاي عن بلدي . رويت لها حكايات ملفقة عن صحارى ذهبية الرمال ، وادغال تتصايح فيها حيوانات لا وجود لها . قلت لها ان شوارع عاصمة بلادي تعج بالافيال والاسود ، وتزحف عليها التماسيح عند القيلولة . وكانت تستمع الي بين مصدقة ومكذبة . تضحك ، وتغمض عينيها ، وتحمر وجنتاها . واحيانا تصغي اليّ في صمت ، وفي عينيها عطف مسيحي . وجاءت لحظة احسست فيها انني انقلبت في نظرها مخلوقا بدائيا عاريا ، يمسك بيده رمحا ، وبالاخرى نشابا ، يصيد الفيلة والاسود في الادغال. هذا حسن. لقد تحول حب الاستطلاع الى مرح ،

وتحول المرح الى عطف ، وحين احرك البركة الساكنة في الاعماق ، سيستحيل العطف الى رغبة اعزف على اوتارها المشدودة كما يحلو لي . وسألتني : « ما جنسك؟ هل انت افريقي ام اسيوي ؟ »

قلت لها : « انا مثل عطيل . عربي افريقي » .

نظرت الى وجهي وقالت : « نعم . انفك مثل انوف العرب في الصور. لكن شعرك ليس فاحما ناعما مثل شعر العرب » .

« نعم . هذا انا . وجهي عربي كصحراء الربع الخالي ، ورأسي افريقي يمور بطفولة شريرة » .

ضحكت وقالت : « انت تصور الاشياء بشكل غريب » .

وقادنا الحديث الى اهلي ، فقلت لها ، غير كاذب هذه المرة ، انني يتيم وليس لي اهل. ثم عدت الى الكذب، فوصفت لها وصفا مهولا كيف فقدت والديّ ، حتى رأيت الدمع يطفر الى عينيها. قلت لها انني كنت في السادسة من عمري ، حين غرق والداي مع ثلاثين آخرين في مركب كان يعبر بهم النيل من شاطىء الى شاطىء . وهنا حدث شيء كان افضل من الرثاء . الرثاء في مثل هذه الامور عاطفة غير مضمونة العواقب. لمعت عيناها، وصاحت في نشوة :

« نايل ؟ »

« نعم النيل » .

« انتم اذاً تسكنون على ضفاف النيل ؟ »

« اجل ، بيتنا على ضفة النيل تماما بحيث انني كنت ، اذا استيقظت على فراشي ليلا، اخرج يدي من النافذة واداعب ماء النيل حتى يغلبني النوم » .

الطائر يامستر مصطفى قد وقع في الشرك . النيل ، ذلك الاله الافعى ، قد فاز بضحية جديدة . المدينة قد تحولت الى امرأة . وما هو الا يوم او اسبوع ، حتى اضرب خيمتي ، واغرس وتدي في قمة الجبل . انت ياسيدتي قد لا تعلمين ، ولكنك، مثل كارنارفون حين دخل قبر توت عنخ آمون ، قد اصابك داء فتاك لا تدرين من اين اتى ، سيودي بك ان عاجلا وان آجلا . ذخيرتي من الامثال لا تنفد . كَنّي يعرف متى يلاقي طبقه . واحسست بزمام الحديث في يدي، كفنان مهره مطواع ، اشده فتقف ، اهزه فتمشي ، احركه فتتحرك وفقا لارادتي ، ان يمينا وان شمالا . وقلت لها :

« مضت ساعتان دون ان احس بهما . لم احس بمثل هذه السعادة منذ زمن بعيد . وبقي كثير اقوله لك وتقولينه لي . ما رأيك في ان نتمشى معا ، ونواصل الحديث ؟ »

صمتت برهة، فلم اقلق، لانني احسست بذلك الدفء الشيطاني، تحت الحجاب الحاجز

حين احسه اعلم انني مسيطر على زمام الموقف . لا ، انها لن تقول لا . وقالت: « هـــذا لقاء عجيب . رجل غريب لا اعرفه يدعوني . هذا لا يجوز ، لكن . . . » وصمتت ثم قالت : « نعم . لم لا ؟ هيئتك لا تدل على انك من اكلة لحوم البشر » .

قلت لها ، وموجة الفرح تتحرك في جذور قلبي : «ستجدين انني تمساح عجوز سقطت اسنانه . لن اقوى على اكلك حتى لو اردت » . قدرت انني اصغرها بخمسة عشر عامـا على الاقل ، امرأة في حدود الاربعين ، مهما حدثت لهـا من التجارب فان الزمن قد عامل جسدها بحنو. التجاعيد الدقيقة على جبهتها وعلى اركان فمها لاتقول لك انها شاخت، بل تقول انها نضجت .

حينئذ فقط سألتها عن اسمها فقالت : « ايزابيلا سيمور » .

رددته مرتين ، وانا املأ به فمي ، كأنني آكل ثمرة كمثرى .

« وانت ما اسمك ؟ »

« انا . . . امين . امين حسن » .

« سأسميك حسن » .

ومع الشواء والنبيذ ، انفرجت اساريرها ، وتدفق حب تحس به نحو العـالم باسره ، عليّ انا . وانا لا يعنيني حبها للعالم ، ولا سحابة الحزن التي تعبر وجهها من آن لآن ، بقدر ما تعنيني حمرة لسانها حين تضحك ، واكتناز شفتيها ، والاسرار الكامنة في قاع فمها . وتخيلتها عارية ، وافحشت التخيل وهي تقول لي : « الحياة مليئة بالالم . لكن يجب علينا ان نتفاءل ، ونواجه الحياة بشجاعة» .

نعم انا اعلم الآن ان الحكمة القريبة المنال، تخرج من افواه البسطاء ، هي كل املنا في الخلاص . الشجرة تنمو ببساطة ، وجدك عاش وسيموت ببساطة . ذلك هو السر . صدقت يا سيدتي ، الشجاعة والتفاؤل. ولكن الى ان يرث المستضعفون الارض، وتسرّح الجيوش ، ويرعى الحمل آمنا بجوار الذئب ، ويلعب الصبي كرة الماء مع التمساح في النهر، الى ان يأتي زمان السعادة والحب هذا ، سأظل انا اعبر عن نفسي بهذه الطريقة الملتوية . وحين اصل لاهثا قمة الجبل ، واغرس البيرق ، ثم التقط انفاسي واستجم – تلك ياسيدتي نشوة اعظم عندي من الحب ، ومن السعادة . ولهذا ، فانا لا انوي بك شرا ، الا بقدر ما يكون البحر شريرا ، حين تتحطم السفن على صخوره ، وبقدر ما تكون الصاعقة شريرة حين تشق الشجرة نصفين . وتركزت الفكرة الاخيرة في رأسي ، بشعيرات على ذراعها الايمن ، قريبا من الرسغ ، ولاحظت ان شعر ذراعيها اكثف مما هو عند النساء عادة ، وقادني هذا الى شعر آخر . لا بد انه ناعم غزير مثل نبات السعدة على حافـــة الجدول . وكأنما سرت الفكرة من ذهني اليها ، فاعتدلت في جلستها وقالت : « ما بالك

تبدو حزينا ؟ »

« هل ابدو حزينا ؟ انا على العكس ، سعيد جدا » .

وعادت النظرة الحانية الى عينيها ، ومدت يدها فأمسكت يدي وقالت . « هل تدري ان امي اسبانية ؟ »

« هذا اذاً يفسر كل شيء . يفسر لقاءنا صدفة ، وتفاهمنا تلقائيا ، كأننا تعارفنا منذ قرون . لا بد ان جدي كان جنديا في جيش طارق بن زياد . ولا بد انه قابل جدتك ، وهي تجني العنب في بستان في اشبيلية . ولا بد انه احبها من اول نظرة ، وهي ايضا احبته . وعاش معها فترة ثم تركها وذهب الى افريقيا . وهناك تزوج . وخرجت انا من سلالته في افريقيا، وانت جئت من سلالته في اسبانيا » .

هذا الكلام ، والضوء الخافت ايضا والنبيذ ، اسعدها، فقرقرت لهاتها بالضحك وقالت :

« يا لك من شيطان » .

وتخيلت برهة لقاء الجنود العرب لاسبانيا . مثلي في هذه اللحظة ، اجلس قبالة ايزابيلا سيمور ، ظمأ جنوني تبدد في شعاب التاريخ في الشمال . انما انا لا أطلب المجد ، فمثلي لا يطلب المجد .

وادرت مفتاح الباب بعد شهر من حمى الرغبة ، وهي الى جانبي ، اندلس خصب ، وقدتهابعد ذلك عبر الممر القصير الى غرفة النوم ، ولفحتها رائحة الصندل المحروق والند ، فملأت رئتيها بعبير لم تكن تعلم انه عبير قاتل . كنت تلك الايام ، حين تصبح القمة مني على مد الذراع ، يعتريني هدوء تراجيدي . كل الحمى والوجيب في القلب،والتوتر في العصب ، يتحول الى هدوء جرّاح وهو يشق بطن المريض. وكنت اعلم ان الطريق القصير الذي سرناه معا الى غرفة النوم ، كان بالنسبة لها طريقا مضيئا ، يعبق بعبير التسامح والمحبة ، وكان بالنسبة لي الخطوة الاخيرة ، قبل الوصول الى قمة الانانية . وتريثت عند حافة الفراش ، كأنني الخص تلك اللحظة في ذهني ، والقيت نظرة موضوعية على الستائر الوردية والمراءات الكبيرة ، والاضواء الحذرة في اركان الحجرة ، ثم على تمثال البرونز المكتمل التكوين امامي . ونحن في قمة المأساة صرخت بصوت ضعيف : « لا . لا » . هذا لا يجديك نفعا الآن . لقد ضاعت اللحظة الخطيرة حين كان بوسعك الامتناع عن اتخاذ الخطوة الاولى . انني اخذتك على غرة ، وكان بوسعك حينئذ ان تقولي « لا » .اما الآن فقد جرفك تيار الاحداث ، كما يجرف كل انسان ، ولم يعد في مقدورك فعل شيء . لو ان كل انسان عرف متى يمتنع عن اتخاذ الخطوة الاولى ، لتغيرت اشياء كثيرة . هل الشمس شريرة حين تحيل قلوب ملايين البشر الى صحارى تتعاور رمالها ويجف فيها حلق

العندليب ؟ وتريثت وانا امسح براحة يدي ظاهر عنقها ، واقبلها في منابع الاحساس . ومع كل لمسة ، مع كل قبلة ، احس ان عضلة في جسدها ترتخي ، وتألق وجهها ولمعت عيناها ببريق خاطف ، واستطالت نظراتها كأنها تنظر اليّ فتراني رمزا ليس حقيقة . وسمعتها تقول لي بصوت متضرع مستسلم : « احبك » ، فجاوب صوتها هتاف ضعيف في اعماق وعيي يدعوني ان اقف . لكن القمة صارت على بعد خطوة ، وبعد ذلك التقط انفاسي واستجم . ونحن في قمة الالم عبرت برأسي سحائب ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيرة مالحة وسط الصحراء . وانفجرت هي ببكاء ممض محرق ، واستسلمت انا الى نوم متوتر محموم .

كانت ليلة قائظة من ليالي شهر يوليو ، وكان النيل قد فاض ذلك العام احد فيضاناته تلك ، التي تحدث مرة كل عشرين او ثلاثين سنة ، وتصبح اساطير يحدث بها الآباء ابناءهم. وغمر الماء اغلب الارض الممتدة بين الشاطىء وطرف الصحراء حيث تقوم البيوت ،وبقيت الحقول كجزيرة وسط الماء. وكان الرجال يتنقلون بين البيوت والحقول في قوارب صغيرة ، او يقطعون المسافة سباحة . وكان مصطفى سعيد حسب علمي يجيد السباحة . حدثني ابي ، فقد كنت في الخرطوم وقتها ، انهم سمعوا بعد صلاة العشاء صراخ نسوة في الحي ، فهرعوا الى مصدر الصوت فاذا الصراخ في دار مصطفى سعيد . كان من عادته ان يعود من حقله مع مغيب الشمس ، ولكن زوجته انتظرت دون جدوى . وذهبت تسأل عنه هنا وهناك ، فاخبروها انهم رأوه في حقله ، والبعض ظن انه عاد الى بيته مع بقية الرجال. وانكبت البلد كلها على الشاطىء . الرجال في ايديهم المصابيح وبعضهم في القوارب. وظلوا يبحثون الليل كله دون جدوى. وارسلوا اشارات تلفونية الى مركز البوليس على امتداد النيل حتى كرمه . ولكن الجثث التي حملها الموج الى الشاطىء ذلك الاسبوع لم تكن بينها جثة مصطفى سعيد. وفي النهاية اخلدوا الى الرأي انه لا بد قد مات غرقا ، وان جثمانه قد استقر في بطون التماسيح التي يغص بها الماء في تلك المنطقة .

اما انا ، فانه يخامرني احيانا ذلك الاحساس الذي اعتراني ليلة سمعته ، فجأة وعلى غير استعداد مني ، يقرأ شعرا انكليزيا ، وهو ممسك كأس الخمر بيده ، دافنا قامته في الكرسي ، ممددا رجليه ، ضوء المصباح ينعكس على وجهه ، وعيناه سارحتان كما خيل لي في آفاق داخل نفسه ، والظلام حولنا في الخارج كأنه قوى شيطانية تتضافر على خنق ضوء المصباح. احيانا تخطر لي فجأة تلك الفكرة المزعجة — ان مصطفى سعيد لم يحدث

اطلاقا ،وانه فعلا اكذوبة ، او طيف، او حلم ،او كابوس،الم باهل القرية تلك ، ذات ليلة داكنة خانقة ، ولما فتحوا اعينهم مع ضوء الشمس لم يروه .

كان الليل قد بقي اقله حين قمت من عند مصطفى سعيد . وخرجت منه وانا اشعر بالتعب – ربما من طول الجلوس – ومع ذلك لم اكن ارغب في النوم . فمضيت اتسكع في شوارع البلد الضيقة المتعرجة ،تلامس وجهي نسمات الليل الباردة التي تهب من الشمال محملة بالندى، محملة برائحة زهور الطلح وروث البهائم ، ورائحة الارض التي رويت لتوها بالماء بعد ظمأ ايام ، ورائحة قناديل الذرة في منتصف نضجها ، وعبير اشجار الليمون . كانت البلد كعادتها صامتة في تلك الساعة من الليل ، الا من طقطقة مكنة الماء على الشاطىء ، ونباح كلب من حين لآخر ، وصياح ديك منفرد احس بالفجر قبل الاوان ، يجاوبه صياح ديك آخر ، ثم يخيم الصمت . ومررت ببيت ود الريس الوطيء عند منعطف الدرب ، فرأيت من الطاقة الصغيرة ضوءا خافتا ، وسمعت زوجة ود الريس تصرخ باللذة . واحسست بالخجل ، لانني اطلعت على امر لم يكن من حقي ان اطلع عليه . لم يكن يحق لي ان اظل يقظا اتسكع في شوارع البلد ، وبقية الناس في اسرّتهم . انني اعرف هذه القرية شارعا شارعا ، وبيتا بيتا ، واعرف ايضا القباب العشر وسط المقبرة في طرف الصحراء اعلى البلد . والقبور ايضا ، اعرفها واحدا واحدا ، زرتها مع ابي وزرتها مع امي وزرتها مع جدي ، واعرف ساكنيها الذين ماتوا قبل ان يولد ابي والذين ماتوا بعد ولادتي .وقد شيعت مع المشيعين منهم اكثر من مائة ، اساعد في حفر التربة ، و اقف على حافة القبر في زحام الناس ريثما يوسد الميت بحجارته ، واهيل التراب . فعلت ذلك مع اهل البلد في الصباح، وفي حمارة القيظ اشهر الصيف ، وبالليل في ايدينا المصابيح . والحقول ايضا اعرفها ، منذ كانت سواقي ، وايام القحط حين هجرها الرجال وتحولت الارض الخصبة ارضا بلقعا تسفوها الريح . ثم جاءت مكنات الماء وجاءت الجمعيات التعاونية ، وعاد من نزح من الرجال ، وعادت الارض كما كانت ، تنتج الذرة في الصيف والقمح في الشتاء . كل هذا رأيته منذ فتحت عيني على الحياة ، ولكنني ابدا لم ارَ القرية في مثل هذه الساعة في اواخر الليل . لا بد ان تلك النجمة الكبيرة الزرقاء المتوهجة هي نجمة الصباح . السماء تبدو اقرب الى الارض في مثل هذه الساعة ، قبيل الفجر ، والبلد يلفها ضوء باهت يجعلها كأنها معلقة بين السماء والارض . وتذكرت وانا اعبر رقعة الرمل التي تفصل بين بيت ود الريس وبيت جدي ، تلك الصورة التي رسمها مصطفى سعيد ، تذكرتها بنفس احساس الخجل الذي اعتراني حين سمعت مناغاة ود الريس مع زوجته . فخذان بيضاوان مفتوحتان . ووصلت عند بيت جدي فسمعته يتلو اوراده استعدادا لصلاة الصبح . الا

ينام ابدا ؟ صوت جدي يصل ، كان آخر صوت اسمعه قبل ان انام واول صوت اسمعه حين استيقظ . وهو على هذه الحال لا ادري كم من السنين ، كأنه شيء ثابت وسط عالم متحرك . واحسست فجأة بروحي تنتعش كما يحدث احيانا اثر ارهاق طويل ، وصفا ذهني ، وتبخرت الافكار السوداء التي اثارها حديث مصطفى سعيد . البلد الآن ليست معلقة بين السماء والارض ، ولكنها ثابتة ؛ البيوت بيوت ، والشجر شجر ، والسماء صافية ولكنها بعيدة . هل كان من المحتمل ان يحدث لي ما حدث لمصطفى سعيد ؟ قال انه اكذوبة ، فهل انا ايضا اكذوبة ؟ انني من هنا . اليست هذه حقيقة كافية ؟ لقد عشت ايضا معهم ، ولكنني عشت معهم على السطح ، لا احبهم ولا اكرههم . كنت اطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة ، اراها بعين خيالي اينما التفت . احيانا في اشهر الصيف في لندن ، اثر هطلة مطر ، كنت اشم رائحتها . في لحظات خاطفة قبيل مغيب الشمس ، كنت اراها . في اخريات الليل ، كانت الاصوات الاجنبية تصل الى اذني كأنها اصوات اهلي هنا . انا ، لا بد ، من هذه الطيور التي لا تعيش الا في بقعة واحدة من العالم . صحيح انني درست الشعر ، بيد ان هذا لا يعني شيئا . كان من الممكن ان ادرس الهندسة او الزراعة او الطب . كلها وسائل لكسب العيش . الوجوه هناك ، كنت اتخيلها ، قمحية او سوداء ، فتبدو وجوها لقوم اعرفهم . هناك مثل هنا ، ليس احسن ولا اسوأ . ولكنني من هنا ، كما ان النخلة القائمة في فناء دارنا ، نبتت في دارنا ولم تنبت في دار غيرها . وكونهم جاؤوا الى ديارنا ، لا ادري لماذا ، هل معنى ذلك اننا نسمم حاضرنا ومستقبلنا ؟ انهم سيخرجون من بلادنا ان عاجلا او آجلا ، كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة . سكك الحديد ، والبواخر ، والمستشفيات ، والمصانع ، والمدارس ، ستكون لنا ، وسنتحدث لغتهم ، دون احساس بالذنب ولا احساس بالجميل . سنكون كما نحن ، قوما عاديين ، واذا كنا اكاذيب ، فنحن اكاذيب من صنع انفسنا .

مثل هذه الافكار اوصلتني الى فراشي ، وصاحبتني بعد ذلك الى الخرطوم حيث تسلمت عملي في مصلحة المعارف . مات مصطفى سعيد منذ عامين ولكنني ما افتأ اقابله من حين لآخر . لقد عشت خمسة وعشرين عاما ، وانا لم اسمع به ولم اره . ثم ، هكذا فجأة اجده في مكان لا يوجد فيه امثاله . واذا بمصطفى سعيد ، رغم ارادتي ، جزء من عالمي ، فكرة في ذهني ، طيف لا يريد ان يمضي في حال سبيله . واذا احساس بعيد بالخوف ، بانه من الجائز الا تكون البساطة هي كل شيء . مصطفى سعيد قال ان جدي يعرف السر . الشجرة تنمو ببساطة ، وجدك عاش وسيموت ببساطة . هكذا . لكن هب انه كان يسخر من بساطتي ؟ في رحلة بالقطار بين الخرطوم والابيض ، كان معي في نفس القمرة موظف متقاعد . حين

تحرك القطار من كوستي كان الحديث قد وصل بنا الى ايام دراسته . وعلمت منه ان عددا من رؤسائي في وزارة المعارف كانوا معاصريه في المدرسة ، وبعضهم كان يزامله في نفس الفصل . ومضى الرجل يذكر ان فلانا في وزارة الزراعة كان زميله ، والمهندس فلانا كان في الفصل الذي امامه ، وفلانا ، التاجر الذي اغتنى ايام الحرب ، كان من ابلد خلق الله في فصلهم ، والجراح الشهير فلانا كان احسن جناح ايمن في المدرسة كلها ايامهم . وفجأة ، رأيت وجه الرجل يضيء ، وعينيه تلمعان ، وقال في صوت متحمس منفعل : « غريبة . تصور انني نسيت انبغ تلميذ في فصلنا ، ولم يخطر على بالي منذ ترك المدرسة . الآن فقط تذكرته . نعم ، مصطفى سعيد » .

مرة اخرى ، ذلك الاحساس ، بان الاشياء العادية امام عينيك تصبح غير عادية . رأيت نافذة القمرة وبابها يلتقيان ، وخيل لي ان الضوء المنعكس على نظارة الرجل ، في لحظة لا تزيد عن طرفة العين ، يتوهج توهجا خاطفا كأنه شمس في رابعة النهار . ولا بد ان الدنيا في تلك اللحظة بدت مختلفة بالنسبة للمأمور المتقاعد ايضا ، اذ ان تجربة كاملة كانت خارج وعيه اصبحت فجأة في متناول اليد . حين رأيت وجهه اول مرة ، قدرت انه في منتصف الستين . وانظر اليه الآن وهو يستطرد في سرد ذكرياته البعيدة ، فارى رجلا لا يزيد يوما واحدا عن الاربعين .

« نعم ، مصطفى سعيد كان انبغ تلميذ في ايامنا . كنا في فصل واحد . كان يجلس في الصف الذي امام صفنا مباشرة . ناحية اليسار . يا للغرابة ، كيف لم يخطر على بالي قبل الآن مع انه كان معجزة في ذلك الوقت ؟ كان اشهر طالب في كلية غردون ، اشهر من اعضاء التيم الاول لكرة القدم ، ورؤساء الداخليات ، والخطباء في الليالي الادبية ، والكتاب في جرائد الحائط ، والممثلين الذائعي الصيت في فرق الدراما . لم يكن له نشاط من هذا القبيل اطلاقا . كان منعزلا ومتعاليا ، يقضي اوقات فراغه وحده ، اما في القراءة او في المشي مسافات طويلة . كنا جميعا داخليين تلك الايام ، في كلية غردون ، حتى ابناء العاصمة المثلثة . كان نابغة في كل شيء ، لم يكن يوجد شيء يستعصي على ذهنه العجيب . كان المدرسون يكلموننا بلهجة ويكلمونه هو بلهجة اخرى . خصوصا مدرسو اللغة الانكليزية ، كانوا كأنما يلقون الدرس له وحده دون بقية التلاميذ » .

وصمت الرجل برهة ، فأحسست برغبة شديدة ان اقول له انني اعرف مصطفى سعيد ، وان الظروف القت بي في طريقه ، فقص عليّ ، ذات ليلة مظلمة قائظة ، قصة حياته ، وانه قضى آخر ايامه في قرية مغمورة الذكر عند منحنى النيل ، وانه مات غرقا ، وربما انتحارا ، وجعلني انا دون سائر الناس وصيا على ولديه . لكنني لم اقل شيئا ، انما المأمور المتقاعد هو الذي استطرد :

« قطع مصطفى سعيد مرحلة التعليم في السودان قفزا – كان بالفعل كأنه يسابق الزمن. وبينما ظللنا نحن بعده في كلية غردون ، ارسل هو في بعثة الى القاهرة وبعدها الى لندن. كان اول سوداني يرسل في بعثة الى الخارج. كان ابن الانكليز المدلل. وكنا جميعا نحسده، ونتوقع ان يصير له شأن عظيم . نحن كنا ننطق الكلمات الانكليزية كأنها كلمات عربية. لا نستطيع ان نسكن حرفين متتاليين . اما مصطفى سعيد فقد كان يعوج فمه ، ويمط شفتيه ، وتخرج الكلمات من فمه كما تخرج من افواه اهلها . كان ذلك يملؤنا غيظا واعجابا في الوقت نفسه . وكنا نطلق عليه ، بخليط من الاعجاب والحقد «الانكليزي الاسود» . وعلى ايامنا ، كانت اللغة الانكليزية هي مفتاح المستقبل – لا تقوم لاحد قائمة بدونها . كلية غردون كانت مدرسة ابتدائية . كانوا يعطونها من العلم ما يكفي فقط لملء الوظائف الحكومية الصغرى – اول ما تخرجت، اشتغلت محاسبا في مركز الفاشر . وبعد جهد جهيد قبلوا ان اجلس لامتحان الادارة . وقضيت ثلاثين عاما نائب مأمور . تصوّر . وقبل ان احال على المعاش بعامين اثنين فقط رقيت مأمورا . كان مفتش المركز الانكليزي الها يتصرف في رقعة اكبر من الجزر البريطانية كلها ، يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند . وكانوا يتصرفون كالآلهة . يسخروننا نحن الموظفين الصغار اولاد البلد لجلب العوائد . ويتذمر الناس منا ويشكون الى المفتش الانكليزي . وكان المفتش الانكليزي طبعا هو الذي يغفر ويرحم . هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا، نحن ابناء البلد ، وحبهم هم المستعمرين الدخلاء . وتأكد من كلامي هذا يابني . ألم تستقل البلد الآن ؟ الم نصبح احرارا في بلادنا ؟ تأكد انهم احتضنوا ارذال الناس . ارذال الناس هم الذين تبوأوا المراكز الضخمة ايام الانكليز . كنا واثقين ان مصطفى سعيد سيصير له شأن يذكر . كان ابوه من العبايدة ، القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان . انهم الذين هربوا سلاطين باشا من اسر الخليفة عبد الله التعايشي ، ثم بعد ذلك عملوا روادا لجيش كتشنر حين استعاد فتح السودان . ويقال ان امه كانت رقيقا من الجنوب . من قبائل الزاندي لو الباريا ، الله اعلم . الناس الذين ليس لهم اصل ، هم الذين تبوأوا اعلى المراتب ايام الانكليز » .

وكان المأمور المتقاعد يغط في نوم مريح ، حين مر القطار على خزان سنار ، الخزان الذي بناه الانكليز عام ١٩٢٦ ، متجها غربا الى الابيض ، على خط حديدي وحيد ، ممتد عبر الصحراء ، كأنه جسر من الحبال بين جبلين شرسين ، بينهما هوة سحيقة ليس لها قرار. مسكين مصطفى سعيد . كان مفروضا ان يكون له شأن بمقاييس المفتشين والمآمير . ولكنه لم يجد حتى قبرا يريح جسده ، في هذا القطر الممتد مليون ميل مربع. وتذكرت ما قاله ان القاضي قبل ان يصدر عليه الحكم في الاولد بيلي قال له : « انك يامستر

مصطفى سعيد ، رغم تفوقك العلمي ، رجل غبي . ان في تكوينك الروحي بقعة مظلمة ، لذلك فانك قد بددت انبل طاقة يمنحها الله للناس : طاقة الحب » . وتذكرت ايضا انني حين خرجت من بيت مصطفى سعيد تلك الليلة ، كان القمر الماحق قد ارتفع مقدار قامة الرجل في الافق الشرقي ، وانني قلت في نفسي ان القمر مقلم الاظافر . لا ادري لماذا خيل لي ان القمر مقلم الاظافر ؟

وفي الخرطوم ايضا ، عرض لي طيف مصطفى سعيد ، بعد محادثتي مع المأمور المتقاعد باقل من شهر ، كأنه جن اطلق من سجنه ، سيظل بعد ذلك يوسوس في آذان البشر ، ليقول ماذا ؟ لا ادري . كنا في بيت شاب سوداني يحاضر في الجامعة ، كنا انا وهو زملاء دراسة في انكلترا . وكان بين الحاضرين رجل انكليزي يعمل في وزارة المالية . وصل بنا الحديث الى موضوع الزواج المختلط . وتحول الحديث من نقاش عمومي الى كلام عن حالات محددة . ثم من هم المتزوجون من اوربيات ؟ ثم من انكليزيات؟ من هو اول سوداني تزوج انكليزية ؟ فلان ؟ لا . فلان ؟ لا . وفجأة . . . مصطفى سعيد . قالها الشاب المحاضر في الجامعة ، وعلى وجهه احساس الفرح ذاته الذي لمحته على وجه المأمور المتقاعد. ومضى الشاب يقول ، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم في اوائل فصل الشتاء : « مصطفى سعيد كان اول سوداني تزوج انكليزية ، بل انه كان اول سوداني تزوج اوربية اطلاقا . اظن انكم لم تسمعوا به ، فقد نزح من زمن . تزوج في انكلترا وتجنس بالجنسية الانكليزية . غريب ان احدا هنا لا يذكره ، مع انه قام بدور خطير في مؤامرات الانكليز في السودان في اواخر الثلاثينات . انه من اخلص اعوانهم . وقد استخدمته وزارة الخارجية البريطانية في سفارات مريبة الى الشرق الاوسط . وكان من سكرتيري المؤتمر الذي انعقد في لندن سنة ١٩٣٦ . انه الآن مليونير ، ويعيش كاللوردات في الريف الانكليزي » .

وسمعت نفسي اقول دون وعي ، بصوت مسموع : « مصطفى سعيد ترك ، بعد موته ، ستة افدنة ، وثلاث بقرات ، وثورا ، وحمارين ، واحدى عشرة عنزا ، وخمس نعجات ، وثلاثين نخلة ، وثلاثا وعشرين شجرة بين سنط وطلح وحراز ، وخمسا وعشرين شجرة ليمون ومثلها برتقال ، وتسعة ارادب قمح وتسعة ذرة ، وبيتا مكونا من خمس غرف ، وديوان ، وغرفة واحدة من الطوب الاحمر ، مستطيلة الشكل ، ذات نوافذ خضراء ، سقفها ليس مسطحا كبقية الغرف ولكنه مثلث كظهر الثور ، وتسعمائة وسبعة وثلاثين جنيها وثلاثة قروش وخمسة ملاليم نقدا » .

في لحظة لا تزيد عن مقدار ما يشيل البرق ثم يختفي ، رأيت في عيني الشاب الجالس

قبالتي شعورا واضحا حيا ملموسا ، بالذعر . رأيته في اتساع حدق العينين ، وارتعاش الجفن ، وارتخاء الفك الاسفل . اذا لم يكن خائفا فلماذا سألني هذا السؤال : « هل انت ابنه ؟ » .

سألني هكذا دون ان يدري هو الآخر لماذا نطق بهذه الكلمات الثلاث ، وهو يعلم تمام العلم من انا . انه لم يكن زميلي في الدراسة ، لكننا كنا في انكلترا في وقت واحد، وقد جمعتنا مناسبات عدة وشربنا البيرة اكثر من مرة معا، في حانات نايتسبردج. هكذا، في لحظة خارج حدود الزمان والمكان ، تبدو له الاشياء هو الآخر ، غير حقيقية . يبدو له كل شيء محتملا . هو ايضا قد يكون ابن مصطفى سعيد ، او اخاه او ابن عمه . العالم في تلك اللحظة القصيرة ، بمقدار ما يطرف جفن العين ، احتمالات لا حصر لها ، كأن آدم وحواء سقطا لتوهما من الجنة .

كل تلك الاحتمالات استقرت على حال واحد حين ضحكت ، وعاد العالم كما كان، اشخاصا ذوي وجوه معروفة واسماء معروفة ومهن معروفة ، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم اوائل فصل الشتاء . ضحك هو الآخر وقال : « يا لي من مجنون ! طبعا انت لست ابن مصطفى سعيد ولا قريبه وانت لم تسمع به من قبل في حياتك . انني نسيت انكم ،معشر الشعراء ، لكم سرحات وشطحات » .

وفكرت ، في شيء من المرارة ، انني في زعم الناس شاعر — سواء اردت او لم ارد ، لانني قضيت ثلاثة اعوام انقب في حياة شاعر مغمور من شعراء الانكليز ، وعدت لادرس الادب الجاهلي في المدارس الثانوية قبل ان يرقوني مفتشا للتعليم الابتدائي .

وهنا تدخل الرجل الانكليزي وقال انه لا يدري صحة ما قيل عن الدور الذي لعبه مصطفى سعيد في مؤامرات السياسة الانكليزية في السودان . الذي يعلمه ان مصطفى سعيد لم يكن اقتصاديا يركن اليه : «انني قرأت بعض ما كتب عما اسماه «اقتصاد الاستعمار» . الصفة الغالبة على كتاباته ان احصائياته لم يكن يوثق بها . كان ينتمي الى مدرسة الاقتصاديين الفابيانيين الذين يختفون وراء ستار التعميم هروبا من مواجهة الحقائق المدعمة بالارقام . العدالة ، المساواة ، الاشتراكية ... مجرد كلمات . رجل الاقتصاد ليس كاتبا كتشارلز دكنز ، ولا سياسيا كروزفلت . انه اداة ، آلة ، لا قيمة لها بدون الحقائق والارقام والاحصائيات . اقصى ما يستطيع ان يفعله هو ان يحدد العلاقة بين حقيقة واخرى، بين رقم وآخر . اما ان تجعل الارقام تقول شيئا دون آخر ، فذلك شأن الحكام ورجال السياسة . الدنيا ليست في حاجة الى مزيد من رجال السياسة . لا . مصطفى سعيد كم هذا لم يكن اقتصاديا يوثق به » .

وسألته ان كان قد قابل مصطفى سعيد .

« لا. انني لم اقابله . كان قد ترك اكسفورد قبلي بمدة. لكنني سمعت نتفا هناوهناك . يظهر انه كان زير نساء . خلق لنفسه اسطورة من نوع ما . الرجل الاسود الوسيم ، المدلل في الاوساط البوهيمية . كان كما يبدو واجهة يعرضهـا افراد الطبقة الارستقراطية الذين كانوا في العشرينات واوائل الثلاثينات يتظاهرون بالتحرر. ويقال انه كان صديقا للورد فلان ولورد علان . وكان ايضا من الاثيرين عند اليسار الانكليزي . ذلك من سوء حظه ، لانه يقال انه كان ذكيا . لا يوجد على وجه الارض اسوأ من الاقتصاديين اليساريين . حتى منصبه الاكاديمي — لا ادري تماما ماذا كان — يخيل اليّ انه حصل عليه لاسباب من هذا النوع . كأنهم ارادوا ان يقولوا : انظروا كم نحن متسامحون ومتحررون ! هذا الرجل الافريقي كأنه واحد منا ! انه تزوج ابنتنـا ويعمل معنا على قدم المساواة ، هذا النوع من الاوربيين لا يقل شرا ، لو تدرون ، عن المجانين الذين يؤمنون بتفوق الرجل الابيض في جنوبي افريقيا وفي الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة . نفس الطاقـة العاطفية المتطرفة ، تتجه اقصى اليمين او اقصى اليسار . لو انه فقط تفرغ للعـلم لوجد اصدقاء حقيقيين من جميـع الاجناس ، ولكنتم قد سمعتم به هنـا . كان قطعا سيعود وينفع بعلمه هذا البلد الذي تتحكم فيه الخرافات . ها انتم الآن تؤمنون بخرافات من نوع جديد . خرافة التصنيـع ، خرافة التأميم ، خرافة الوحدة العربية ، خرافـة الوحدة الافريقية . انكم كالاطفال تؤمنون ان في جوف الارض كنزا ستحصلون عليه بمعجزة ، وستحلون جميع مشاكلكم وتقيمون فردوسا. اوهام . احلام يقظة . عن طريق الحقائق والارقام والاحصائيات ، يمكن ان تقبلوا واقعكم وتتعايشوا معه وتحاولوا التغيير في حدود طاقاتكم . وقد كان بوسع رجل مثل مصطفى سعيد ان يلعب دورا لا بأس به في هذا السبيل ، لو انه لم يتحول الى مهرج بين يدي حفنة من الانكليز المعتوهين » .

وبينما انبرى منصور يفند آراء رتشارد ، اخلدت انا الى افـكاري . ما جدوى النقاش ؟ هذا الرجل — رتشارد — هو الآخر متعصب . كل احـد متعصب بطريقة او باخرى . لعلنا نؤمن بالخرافات التي ذكرها ، ولكنه يؤمن بخرافة جديدة ، خرافـة عصرية ، هي خرافة الاحصائيات. ما دمنا سنؤمن باله ، فليكن الها قادرا على كل شيء . اما الاحصائيات ؟ الرجل الابيض ، لمجرد انه حكمنا في حقبة من تاريخنا ، سيظل امدا طويلا يحس نحونا باحساس الاحتقار الذي يحسه القوي تجاه الضعيف . مصطفى سعيد قال لهم : « انني جئتكم غازيا » . عبارة ملودرامية ولا شك . لكن مجيئهم ، هم ايضا ، لم يكن مأساة كما نصور نحن ، ولا نعمة كما يصورون هم . كان عملا ملودراميا سيتحول مع مرور الزمن الى خرافة عظمى . وسمعت منصور يقول لرتشارد : «لقد نقلتم الينا مرض اقتصادكم الرأسمالي . ماذا اعطيتمونا غير حفنة من الشركات الاستعمارية نزفت دماءنا وما

تزال ؟ » وقال له رتشارد : « كل هذا يدل على انكم لا تستطيعون الحياة بدوننا . كنتم تشكون من الاستعمار، ولما خرجنا خلقتم اسطورة الاستعمار المستتر . يبدو ان وجودنا، بشكل واضح او مستتر ، ضروري لكم كالماء والهواء». ولم يكونا غاضبين. كانا يقولان كلاما مثل هذا ويضحكان على مرمى حجر من خط الاستواء ، تفصل بينهما هوة تاريخية ليس لها قرار .

لكن ارجو الا يتبادر الى اذهانكم ، ياسادتي ، ان مصطفى سعيد اصبح هوسا يلازمني في حلي وترحالي . كانت احيانا تمر اشهر دون ان يخطر على بالي . انه مات على اي حال ، غرقا ، او انتحاراً ، الله وحده يعلم . آلاف الناس يموتون كل يوم . ولو وقفنا نتمعن لماذا مات كل منهم ، وكيف مات — ماذا يحدث لنا نحن الاحياء ؟ الدنيا تسير ، باختيارنا او رغم انوفنا . وانا ، كملايين البشر ، اسير ، اتحرك ، بحكم العادة في الغالب ، في قافلة طويلة ، تصعد وتنزل ، تحط وترحل . والحياة في هذه القافلة ليست كلها شرا . انتم ولا شك تدركون ذلك . قد يكون السير شاقا بالنهار ، البوادي تترامى امامنا كبحور ليس لها ساحل . نتصبب عرقا ، وتجف حلوقنا من الظمأ ، ونبلغ الحد الذي نظن ان ليس بعده متقدم . ثم تغيب الشمس ، ويبرد الهواء ، وتتألق ملايين النجوم في السماء . نطعم ونشرب حينئذ ، ويغني مغني الركب . بعضنا يصلي جماعة وراء الشيخ، وبعضنا يتحلق حلقات يرقصون ويغنون ويصفقون . وفوقنا سماء دافئة رحيمة . واحيانا نسري بالليل ماطاب لنا السرى، وحين يبين الخيط الابيض من الخيط الاسود نقول:«عند انبلاج الصبح يحمد القوم السرى » . واذا كان السراب احيانا يخدعنا ، واذا كانت رؤوسنا المحمومة بفعل الحر والعطش تغور احياناً بافكار لا اساس لها من الصحة ، فلا جرم . اشباح الليل تتبخر مع الفجر ، وحمى النهار تبرد مع نسيم الليل. هل ثمة وسيلة اخرى غير هذه ؟ هكذا كنت اقضي شهرين كل سنة في تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل . النهر بعد ان كان يجري من الجنوب الى الشمال ، ينحني فجأة في زاوية تكاد تكون مستقيمة ، ويجري من الغرب الى الشرق. المجرى هنا متسع وعميق، ووسط الماء جزر صغيرة مخضرة، تحوم عليها طيور بيضاء . وعلى الشاطئين غابات كثيفة من النخل ، وسواقي دائرة،ومكنة ماء من حين لآخر . الرجال صدورهم عارية ، يلبسون سراويل طويلة،يقطعون او يزرعون، حين تمر بهم الباخرة كقلعة عائمة وسط النيل يرفعون قاماتهم ويلتفتون اليها برهة ثم يعودون الى ما كانوا فيه .انها تمر على هذا المكان وقت الضحى،مرة في الاسبوع،وما تزال في ظلال النخل

المنعكسة على الماء بقية تتكسر حين يهزها الموج الذي تحدثه محركات الباخرة. وتنطلق صفارة مبحوحة ، سيسمعها اهلي ولا شك في دورهم وهم يشربون قهوة الضحى . من بعيد تبدو المحطة . رصيف ابيض عليه طابور من شجر الجميز . وتلمح على الشاطئين حركة واضحة . بعض الناس على الحمير وبعضهم على الاقدام ، وقوارب ومراكب شراعية تتحرك من الشاطىء المقابل للمحطة . تدور الباخرة حول نفسها ، لكي لا تكون المحركات في مجرى التيار ، ويكون في استقبالها جمهور متوسط من الرجال والنساء . ذلك ابي واولئك اعمامي واولاد اعمامي وقد ربطوا حميرهم في شجر الجميز . لا يفصل ضباب بيني وبينهم هذه المرة ، فانا قادم من الخرطوم ، فقط ، بعد غيبة لم تدم اكثر من سبعة اشهر . انني اراهم بعين واقعية . جلابيبهم نظيفة ولكنها غير مكوية ، وعمائمهم اكثر بياضا من جلابيبهم ، شواربهم تتفاوت طولا وقصرا ، سوادا وبياضا . بعضهم له لحى ، والذين ليست لهم لحى اهملوا حلاقتها . بين حميرهم حمارة طويلة سوداء لم ارها من قبل . ينظرون الى الباخرة دون اكتراث اذ تلقى مراسيها ويزدحم الناس عند مدخلها . انهم ينتظرونني في الخارج ، لا يهرولون لملاقاتي . ويصافحونني ويصافحون زوجتي على عجل ، ولكنهم يمطرون الطفلة قبلا ، يتناوبون حملها على ايديهم ، ريثما تحملنا الحمير الى الحي . هذا حالي منذ كنت تلميذا في المدرسة ، لم انقطع الا في غيبتي الطويلة تلك التي سبق ان حدثتكم عنها . وفي الطريق الى الحي اسألهم عن الحمارة السوداء فيقول ابي : « اعرابي غش عمك واخذ منه حمارته البيضاء التي تعرفها وفوقها خمسة جنيهات ايضا » . ولا ادري اي اعمامي غشه الاعرابي ، حتى اسمع صوت عمي عبد الكريم يقول : « عليّ الطلاق هذه اجمل حمارة في البلد كلها . هذه جواد وليست حمارة . اذا شئت وجدت من يعطيني فيها ثلاثين جنيها » . ويضحك عمي عبد الرحمن ويقول : « اذا كانت جوادا فهي جواد عاقر . لا خير في حمارة لا تلد » . واسألهم عن محصول التمر هذا العام وانا اعلم اجابتهم سلفا : « لا خير فيه » . يقولون ذلك بصوت واحد ، وكل سنة الاجابة نفسها ، وانا ادرك ان الامر خلاف ما يزعمون . ونمر ببناء من الطوب الاحمر على ضفة النيل في منتصف تمامه ، واسألهم عنه ، فيقول عمي عبد المنان : « شفخانة . لهم حول لا يستطيعون بناءها . حكومة كلام فارغ » . واقول له انني كنت هنا منذ سبعة اشهر فقط ، ولم يكونوا قد بدأوا بناءها بعد . لكن هذا لا يثني عمي عبد المنان ، فيقول : « كل الذي يفلحون فيه يحيؤوننا مرة كل عامين او ثلاثة بجماهيرهم ولواريهم ولافتاتهم... يعيش فلان ويسقط علان . كنا مرتاحين ايام الانكليز من هذه الدوشة » . وبالفعل يمر بنا جمع من الناس في لوري قديم وهم يهتفون : « عاش الحزب الوطني الديمقراطي الاشتراكي » . هل هؤلاء هم الناس الذين يطلق عليهم « الفلاحون » في الكتب ؟ لو قلت لجدي ان الثورات تصنع باسمه ، والحكومات تقوم وتقعد من اجله ، لضحك . الفكرة

تبدو شاذة فعلا ، كما ان حياة مصطفى سعيد وموته في مكان مثل هذا يبدو شيئا صعبا تصديقه . مصطفى سعيد كان يحضر الصلوات في المسجد بانتظام . لماذا كان يبالغ في تمثيل ذلك الدور المضحك ؟ هل جاء الى هذه القرية النائية يطلب راحة البال ؟ لعل الاجابة في تلك الغرفة المستطيلة ذات النوافذ الخضراء . ماذا اتوقع ؟ هل اتوقع ان اجده جالسا على كرسي وحده في الظلام؟ ام اتوقع ان اجده معلقا من رقبته بحبل يتدلى من السقف ؟ والرسالة التي تركها لي في ظرف مختوم بالشمع الاحمر، متى كتبها ؟

« انني اترك زوجتي وولديّ وكل مالي من متاع الدنيا في ذمتك ، وانا اعلم انك ستكون امينا على كل شيء . زوجتي تعلم بكل ما لي ، وهي حرة التصرف . اني واثق بحكمتها . ولكنني اطلب منك ان تؤدي هذه الخدمة لرجل لم يسعد بالتعرف اليك كما ينبغي – ان تشمل اهل بيتي برعايتك وان تكون عونا ومشيرا ونصيحا لولديّ ، وان تجنبهما ما استطعت مشقة السفر . جنبهما مشقة السفر . وساعدهما ان ينشآ نشأة عادية ويعملا عملا مفيدا . وانا اترك لك مفتاح غرفتي الخاصة ولعلك تجد فيها ما تبحث عنه . انا اعلم انك تعاني من رغبة استطلاع مفرطة بشأني ، الامر الذي لا اجد له مبررا . فحياتي مهما كان من امرها ليس فيها عظة او عبرة لاحد . ولولا ادراكي ان معرفة اهل القرية بماضيّ كان سيعوقني عن مواصلة الحياة التي اخترتها لنفسي بينهم، لما كان ثمة مبرر للكتمان. وانت في حل من العهد الذي قطعته على نفسك تلك الليلة ، فتحدث ما شئت . واذا لم تستطع ان تقاوم رغبة الاستطلاع في نفسك، فستجد في تلك الغرفة، التي لم يدخلها احد غيري من قبل ، قصاصات ورق وشذورا متفرقة ومحاولات لكتابة مذكرات وغير ذلك. ارجو على اي حال ان تساعدك على تزجية الساعات التي لا تجد وسيلة افضل لقضائها. وانا اترك لك تقدير الوقت المناسب لتعطي ولديّ مفتاح الغرفة وتساعدهما على ادراك حقيقة امري . انه يهمني ان يعلما اي نوع من الناس كان ابوهما – اذا كان ذلك ممكنا اصلا – وليس هدفي ان يحسنا بي الظن . حسن الظن هو آخر ما ارمي اليه – ولكن لعل ذلك يساعدهما على معرفة حقيقتها ، ولكن في وقت لا تكون المعرفة فيه خطرا . اذا نشآ متشبعين بهواء هذا البلد وروائحه والوانه وتاريخه ووجوه اهله وذكريات فيضاناته وحصاداته وزراعاته فان حياتي ستحتل مكانها الصحيح كشيء له معنى الى جانب معانٍ كثيرة اخرى اعمق مدلولا. لا ادري كيف يفكران فيّ حينئذ. قد يحسان نحوي بالرثاء ، وقد يحولانني بخيالهما الى بطل . هذا ليس مهما . المهم ان حياتي لن تجيء من وراء المجهول كروح شريرة تلحق بهما الضرر . وكم كنت اتمنى ان اظل معهما ، اراقبهما يكبران امام عيني ويكونان على الاقل مبررا لوجودي . انني لا ادري اي العملين اكثر انانية، بقائي او ذهابي . ومهما يكن فانه لا حيلة لي ، ولعلك تدرك قصدي اذا عدت بذاكرتك الى ما

قلته لك تلك الليلة . لا جدوى من خداع النفس . ذلك النداء البعيد ما يزال يتردد في اذني . وقد ظننت ان حياتي وزواجي هنا سيسكتانه . ولكن لعلي خلقت هكذا ، او ان مصيري هكذا ، مهما يكن معنى ذلك ، لا ادري . انني اعرف بعقلي ما يجب فعله ، الامر الذي جربته في هذه القرية ، مع هؤلاء القوم السعداء . ولكن اشياء مبهمة في روحي وفي دمي تدفعني الى مناطق بعيدة تتراءى لي ولا يمكن تجاهلها . واحسرتي اذا نشأ ولداي ، احدهما او كلاهما ، وفيهما جرثومة هذه العدوى ، عدوى الرحيل . انني احملك الامانة لانني لمحت فيك صورة عن جدك . لا ادري متى اذهب يا صديقي ، ولكنني احس ان ساعة الرحيل قد ازفت ، فوداعا » .

اذا كان مصطفى سعيد قد اختار النهاية ، فانه يكون قد قام باعظم عمل ملو درامي في رواية حياته . واذا كان الاحتمال الآخر هو الصحيح ، فان الطبيعة تكون قد منت عليه بالنهاية التي كان يريدها لنفسه . تصور . عز الصيف في شهر يوليو العتيد . النهر اللامبالي فاض كما لم يفض منذ ثلاثين عاما . الظلام يصهر عناصر الطبيعة جميعا في عنصر واحد محايد ، اقدم من النهر ذاته واقل منه اكتراثا . هكذا يجب ان تكون نهاية هذا البطل . انما هل هي فعلا النهاية التي كان يبحث عنها ؟ لعله كان يريدها في الشمال ، الشمال الاقصى ، في ليلة جليدية عاصفة ، تحت سماء لانجوم لها ، بين قوم لا يعنيهم امره . نهاية الغزاة الفاتحين . ولكنهم ، كما قالوا ، تآمروا ضده ، المحلفون والشهود والمحامون والقضاة ليحرموه منها . هكذا قال : « رأى المحلفون امامهم رجلا لا يريد ان يدافع عن نفسه رجلا فقد الرغبة في الحياة . انني ترددت في تلك الليلة ، حين شهقت جين في اذني : « تعال معي . تعال معي » . كانت حياتي قد اكتملت ليلتها ، ولم يكن ثمة مبرر للبقاء ولكنني ترددت ، وخفت في اللحظة الحاسمة . وكنت ارجو ان تمنحني المحكمة ما عجزت انا عن تحقيقه . وكأنما ادركوا قصدي ، فصمموا الا يعطوني آخر امنية لي عندهم حتى الكولونيل همند الذي كنت اتوسم فيه الخير ، ذكر زيارتي لهم في لفربول ، وانني تركت في نفسه اثرا حسنا . قال انه يعتبر نفسه انسانا متحررا ليس عنده تحيز ضد احد ولكنه رجل واقعي ، وقد كان يرى ان زواجا مثل ذلك لن ينجح . وقال ايضا ان ابنته آن وقعت تحت تأثير الفلسفات الشرقية في اكسفورد ، وكانت مترددة بين اعتناق البوذية او الاسلام . وهو لا يستطيع ان يجزم اذا كان انتحارها بسبب ازمة روحية انتابتها او لانها اكتشفت خداع مستر مصطفى سعيد لها . كانت آن ابنته الوحيدة ، وقد عرفتني وهي دون العشرين ، فخدعتها وغررت بها وقلت لها نتزوج زواجا يكون جسرا بين الشمال والجنوب ، وحولت جذوة التطلع في عينيها الخضراوين الى رماد . ومع ذلك

يقف ابوها وسط المحكمة ويقول بصوت هادىء انه لا يستطيع ان يحزم . هذا هو العدل واصول اللعب ، كقوانين الحرب والحياد في الحرب . هذه هي القوة التي تلبس قناع الرحمة ... » المهم انهم حكموا عليه بالسجن ، سبع سنوات فقط ، ورفضوا انيتخذوا القرار الذي كان عليه هو ان يتخذه بمحض ارادته . ويخرج من السجن ،ويتشردفي اصقاع الارض ، من باريس الى كوبنهاغن الى دلهي الى بانكوك ، وهو يحاول التسويف. وتكون النهاية بعد ذلك في قرية مغمورة الذكر على النيل ، ولا يستطيع المرء ان يحزم هل كانت اعتباطا او انه اسدل الستار بمحض ارادته . انما انا لم اجيء الى هنا لافكر في مصطفى سعيد ، فها هي ذي بيوت القرية المتلاصقة من الطين والطوب الاخضر تشرئب باعناقها امامنا ، وحميرنا تحث السير لانها شمت بخياشيمها رائحة البرسيم والعلف والماء . هذه البيوت على حافة الصحراء ، كأن قوما في عهد قديم ارادوا ان يستقروا ثم نفضوا ايديهم ورحلوا على عجل . هنا تبدأ اشياء وتنتهي اشياء . ومنطقة صغيرة من هواء بارد رطب يأتي من ناحية النهر ،وسط هجير الصحراء ، كأنه نصف حقيقة وسط عالم مليء بالا كاذيب. اصوات الناس والطيور والحيوانات تتناهى ضعيفة الى الاذن كأنها وساوس ، وطقطقة مكنة الماء المنتظم تقوي الاحساس بالمستحيل . والنهر ، النهر الذي لولاه لم تكن بداية ولا نهاية ، يجري نحو الشمال ، لا يلوي على شيء ؛ قد يعترضه جبل فيتجه شرقا ، وقد تصادفه وهدة من الارض فيتجه غربا ؛ ولكنه ان عاجلا او آجلا يستقرفي مسيره الحتمي ناحية البحر في الشمال .

وقفت عند باب دار جدي في الصباح — باب ضخم عتيق من خشب الحراز ، لاشك انه استوعب حطب شجرة كاملة ، صنعه ود البصير ، مهندس القرية الذي لم يتعلم النجارة في مدرسة ، كما كان يصنع عجلات السواقي وحلقاتها ، وايضا يجبر العظام ، ويكوي ويحجم ، ويتخصص كذلك في نقد الحمير ، قلّ ان يشتري احد من اهل البلد حمارة دون مشورته . ود البصير ما يزال حيا الى يومنا هذا ، ولكنه لم يعد يصنع مثل باب بيت جدي ، بعد ان اكتشفت الاجيال اللاحقة من اهل البلد ابواب خشب الزان وابواب الحديد ، يجلبونها من ام درمان . والسواقي ايضا . بار سوقهاحين جاءت مكنات الماء . وسمعتهم يقهقهون ، فميزت ضحكة جدي النحيلة الخبيثة المنطلقة حين يكون على سجيته ، وضحكة ود الريس التي تخرج من كرش مملوءة طعاما دائما ، وضحكة بكري التي تأخذ لونها وطعمها من المجلس الذي يكون موجودا فيه ، وضحكة بنت مجذوب

القوية المسترجلة. تخيلت جدي جالسا على فروة صلاته وفي يده مسبحته من خشب الصندل، تدور في حركة دائبة كقواريس الساقية . وبنت مجذوب وود الريس وبكري، اصدقاؤه القدامى ، يجلسون على تلك الاسرّة الوطيئة ، التي لا تعلو ارجلها عن الارض اكثر من شبرين . ارتفاع السرير عن الارض، في زعم جدي، من الغرور، وقصره من التواضع. بنت مجذوب متكئة على كوعها ، وفي اليد الاخرى سيجارة . ود الريس كأنه يخرج الحكايات الخبيثة من اطراف شاربيه . وبكري يجلس وحسب . هـذه الدار الكبيرة ليست من الحجر ولا الطوب الاحمر ، ولكنها من الطين نفسه الذي يزرع فيـــه القمح ، قائمة على طرف الحقل تماما ، تكوّن امتدادا له . وهذا واضح من شجيرات الطلح والسنط النامية في فناء الدار والنباتات التي نمت في الحيطان نفسها حيث تسرب اليها الماء من الارض المزروعة . وهي دار فوضى قائمة دون نظام ، اكتسبت هيئتها هذه على مـدى اعوام طويلة ؛ غرف كثيرة مختلفة الاحجام ، بنيت بعضها لصق بعض في اوقات مختلفة ، امـا حسب الحاجة اليها ، او لان جدي توفر له شيء من المال لم يجد وسيلة اخرى ينفقه فيها . غرف يؤدي بعضها الى بعض ؛ بعضها لها ابواب وطيئة لا بد ان تنحني كي تدخلهـا ، وبعضها ليست لها ابواب اطلاقا ؛ بعضها لها نوافذ كثيرة ، وبعضها ليست لها نوافـذ . حيطانها ملساء مطلية بمادة هي خليط من الرمل الخشن والطين الاسود وزبالة البهائم ، وكذلك السطوح، والاسقف من جذوع النخل وخشب السنط وجريد النخل . دار متاهة ، باردة في الصيف ، دافئة في الشتاء . اذا نظرت اليها من الخارج ، دون عطف ، احسست بها كيانا هشا لن يقوى على البقاء ، ولكنها تغالب الزمن بشيء كالمعجزة .

ودخلت من باب الحوش ، ونظرت الى اليسار واليمين في الفناء الواسع . هنالك تمر نشر على بروش ليجف . وهنالك بصل وشطّة. وهنالك اكياس قمح وفول بعضها خيطت افواهه وبعضها مفتوح . وفي ركن عنز تأكل شعيرا وترضع مولودا . هذه الدار مصيرها مرتبط بمصير الحقل ، اذا اخضر الحقل اخضرت ، وحين يجتاح القحط الحقول يجتاحهـا هي ايضا . واشم تلك الرائحة التي يمتاز بها بيت جدي ، خليط من روائح متنافرة، رائحة البصل والشطة والتمر والقمح والفول واللوبية والحلبة ، اضف اليها رائحة البخور الذي يعبق دائما في مجمر الفخار الكبير . رائحة البخور تذكرني بتقشف جدي في العيش، وترفه في لوازم صلاته . الفروة التي يصلي عليها ، وحين يشتد البرد يستعملها غطاء ، عبارة عن جلود ثلاثة نمور مخيطة في جلد واسع. وابريق الصلاة من النحاس عليه تصاوير ونقوش، وله طشت من نحاس ايضا. وهو يفتخر خاصة بمسبحته لانها من خشب الصندل ، يداعب حباتها ، ويمسح بهـــا وجهه ويستنشق رائحتها . وكان اذا غضب من احد احفاده، ضربه بها على رأسه ، يقول ان ذلك يطرد الشيطان . وهذه الاشياء جميعا ، مثل غرف داره

والنخل في حقله ، لها تاريخ قصه عليّ جدي مرارا وتكرارا ، في كل مرة يحذف شيئا ويضيف شيئا .

وتمهلت عند باب الغرفة وانا استمرىء ذلك الاحساس العذب الذي يسبق لحظة لقائي مع جدي كلما عدت من السفر. احساس صاف بالعجب من ان ذلك الكيان العتيق مايزال موجودا اصلا على ظاهر الارض. وحين اعانقه استنشق رائحته الفريدة التي هي خليط من رائحة الضريح الكبير في المقبرة ورائحة الطفل الرضيع. وذلك الصوت النحيل المطمئن، يقوم جسرا بيني وبين الساعة القلقة التي لم تتشكل بعد، والساعات التي استوعبت احداثها ومضت ، واصبحت لبنات في صرح له مدلولات وابعاد. نحن بمقاييس العالم الصناعي الاوربي ، فلاحون فقراء، ولكنني حين اعانق جدي احس بالغنى، كأنني نغمة من دقات قلب الكون نفسه . انه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع في ارض منت عليها الطبيعة بالماء والخصب، ولكنه كشجيرات السيال في صحارى السودان ، سميكة اللحى حادة الاشواك ، تقهر الموت لانها لا تسرف في الحياة . وهذا هو وجه العجب . انه عاش اصلا — رغم الطاعون والمجاعات والحروب وفساد الحكام . وها هو ذا الآن يقترب من عامه المائة ، اسنانه جميعا في فمه ، عيناه صغيرتان باهتتان تحسب انهما لا تريان ولكنه ينظر بهما في جلكة الليل ، جسمه الضئيل منكمش على ذاته ، عظام وعروق وجلد وعضلات، وليست فيه قطعة واحدة من الشحم ، يقفز فوق الحمار نشيطا ، ويمشي في غبش الفجر من بيته الى الجامع .

مسح جدي بطرف ثوبه الدمع الذي سال على وجهه من شدة الضحك ، وبعد ان طهلوني ريثما استقر في مجلسي معهم ، قال جدي: «والله حكايتك حكاية يا ود الريس». ولكن هذا ايذانا لود الريس بان يستمر في القصة التي قطعها دخولي عليهم. «وبعد، ياحاج احمد ، اركبت البنت امامي على الحمار وهي تفلفص وتتلوى وبالقوة جردتها من جميع ثيابها حتى اصبحت عارية كما ولدتها امها . كانت فرخة عديلة من جواري بحري بلغت توها — النهد يا حاج احمد كأنه طبنجة والكفل اذا طوقته بذراعيك لا تصل حده . وكانت مدهنة ومدلكة جلدها يلمع في ضوء القمر وعطرها يدوخ العقل . ونزلت بها الى منطقة رملية وسط الذرة. ولما قمت عليها سمعت حركة في الذرة وصوتا يقول : من هناك؟ يا حاج احمد ، جنون الشباب ليس مثله جنون . فكرت بسرعة . وعملت انني عفريت . واخذت اصرخ بأصوات شيطانية وانثر الرمل وابرطع ، فذعر الرجل وهرب. انما النكتة ان عمي عيسى كان قد تقفى اثري منذ خطفت الجارية من بيت العرس حتى وصلنا الى بقعة الرمل . ولما رأى انني عملت عفريت وقف يتفرج . وثاني يوم في الصباح الباكر

ذهب الى والدي رحمة الله عليه وقص عليه القصة كلها ، وقال له : ابنك هذا شيطان رجيم ، واذا لم نجد له زوجة في هذا النهار افسد البلد وسبب لنا فضائح لا اول لها ولا آخر. وفعلا عقدوا لي في نفس اليوم على بنت عمي رجب . الله يرحمها ، ماتت في اول ولادة». وقالت له بنت مجذوب وهي تضحك بصوتها الرجالي المبحوح من كثرة التدخين : « ومن يومها وانت تركب وتنزل كأنك فحل الحمير » .

فقال لها ود الريس : « هل احد يعرف حلاوة هذا الشيء اكثر منك يابنت مجذوب؟ انك دفنت ثمانية ازواج ، والآن وانت عجوز كركبة لو وجدته لما قلت لا » . وقال جدي : «سمعنا ان غنج بنت مجذوب شيء لا يتصوره العقل ».

واشعلت بنت مجذوب سيجارة وقالت : « عليّ الطلاق يا حاج احمد ، كنت حين يرقد زوجي بين فخذيّ اصرخ صراخا تجفل منه البهائم المربوطة في مراحها في الساقية ». وكان بكري قبل ذلك يضحك ولا يقول شيئا ، فقال : « حدثينا يا بنت مجذوب . اي ازواجك كان احسن ؟ » فقالت بنت مجذوب على الفور : « ود البشير » . فقال بكري : «ود البشير الكحيان التعبان ؟ كانت العنز تأكل عشاءه » .

ونفضت بنت مجذوب رماد السيجارة على الارض بحركة مسرحية باصابعها وقالت : « عليّ الطلاق ، كان عنده شيء مثل الوتد حين يدخله في احشائي لا اجد ارضا تسعني. كان يرفع رجليّ بعد صلاة العشاء ، واظل مشبوحة حتى يؤذن اذان الفجر . وكان حين تأتيه الحالة يشخر كالثور حين يذبح . وكان دائما حين يقوم من فوقي يقول : هالله الله يا بنت مجذوب » . فقال لها جدي : « لا عجب انك قتلته في عز الشباب » . فضحكت بنت مجذوب وقالت : «قتله اجله . هذا الشيء لا يقتل احدا » .

كانت بنت مجذوب امرأة طويلة لونها فاحم مثل القطيفة السوداء ، ما يزال فيها الى الآن وهي تقارب السبعين بقايا جمال. وقد كانت مشهورة في البلد، يتسابق الرجال والنساء على السواء لسماع حديثها لما فيه من جرأة وعدم تحرج . وكانت تدخن السجاير وتشرب الخمر وتحلف بالطلاق كأنها رجل . ويقال ان امها كانت ابنة احد سلاطين الغور . وقد تزوجت عددا من خيرة رجال البلد ، ماتوا كلهم عنها وتركوا لها ثروة ليست قليلة. وقد انجبت ولدا واحدا وعددا لا يحصى من البنات اشتهرن بجمالهن وعدم تحرجهن في الحديث، مثل امهن. ويروى ان احدى بنات بنت مجذوب تزوجت رجلا لم تكن امها راضية عنه. وحملها وسافر بها. ولما عاد بعد نحو من عام اراد ان يقيم وليمة يدعو اليها اقارب زوجته . فقالت له الزوجة : « ان امي لا تتحرج في كلامها ومن الخير ان ندعوها وحدها ». وفعلا ذبحوا واولموا لها . وبعد ان طعمت وشربت قالت لابنتها وزوجها يسمع : « يا آمنة . هذا الرجل لم يقصر في حقك. فمسكنك حسن وملبسك حسن، وقد ملأ يديك ورقبتك

ذهبا . ولكن لايبدو على وجهه انه يقدر على اشباعك في الفراش. فاذا اردت الشبع الصحيح فانا اعرف لك زوجا اذا جاءك لا يتركك حتى تزهق روحك » . ولما سمع الزوج هـذا الكلام غضب غضبا شديدا وطلق زوجته ثلاثا في الحين .

وقالت بنت مجذوب لود الريس : « ما بالك ، لك عامان وانت مكتفٍ بزوجة واحدة ؟ هل ضعفت همتك ؟ »

وتبادل ود الريس وجدي نظرات لم افهمها الا فيما بعد ، وقال : « الوجه وجه شيخ والقلب قلب شاب . هل تعرفين ارملة او ثيبا تصلح لي ؟ »

وقال بكري : «النصيحة لله يا ود الريس . انت لم تعد رجل زواج. انك الآن شيخ في السبعين واحفادك صار لهم اولاد . الا تستحي ، لك كل سنة عرس ؟ الآن يلزمك الوقار والاستعداد لملاقاة الله سبحانه وتعالى » .

ضحكت بنت مجذوب وضحك جدي لهذا القول ، وقال ود الريس في غضب مصطنع : « ماذا يفهمك انت في هذه الامور ؟ انت وحاج احمد كل واحد منكم اكتفى بامرأة واحدة . ولما ماتتا وتركتا كما لم تجدا الجرأة على الزواج . حاج احمد هذا طول اليوم في صلاة وتسبيح كأن الجنة خلقت له وحده . وانت يا بكري مشغول في جمع المال الى ان يريحك منه الموت . الله سبحانه حلل الزواج وحلل الطلاق وقال خذوهن باحسان او فارقوهن باحسان . وقال في كتابه العزيز : النسوان والبنون زينة الحياة الدنيا » .

وقلت لود الريس ان القرآن لم يقل « النسوان والبنون » ولكنه قال « المال والبنون ». فقال : « مهما يكن ، لا توجد لذة اعظم من لذة النكاح » .

وملّس ود الريس شاربيه المقوسين بعناية الى اعلى ، طرفاهما كحد الابرة ، ثم اخذ يمسح بيده اليسرى لحيته الغزيرة البيضاء التي تلبس وجهه من الصدغ الى الصدغ ، ويتنافر لونها الابيض الناصع مع سمرة وجهه كلون الجلد المدبوغ، فكأن اللحية شيء صناعي الصق بالوجه . ويختلط بياض اللحية دون مشقة ببياض العمة الكبيرة ، مقيما اطارا صارخا يبرز اهم معالم الوجه : العينين الجميلتين الذكيتين ، والانف المرهف الوسيم . وود الريس يستعمل الكحل متذرعا بان الكحل سنة ، لكنني اظن انه يفعل ذلك زهوا . كان في مجموعه وجها جميلا ، خاصة اذا قارنته بوجه جدي الذي ليس فيه شيء يميزه ، ووجه بكري وهو كالبطيخة المكرمشة . وواضح ان ود الريس يدرك ذلك ، وقد سمعت انه كان في شبابه آية في الحسن ، وان قلوب الفتيات كانت تخفق بحبه قبلي وبحري ، اعلى النهر واسفله . كان كثير الزواج والطلاق ، لا يعنيه في المرأة الا انها امرأة ، يأخذهن حيثما اتفق ، ويجيب اذا سئل : « الفحل غير عواف». واذكر من زوجاته دنقلاوية من الخندق ،

وهدندوية من الغضارف ، واثيوبية وجدها تخدم عند ولده الاكبر في الخرطوم ، وامرأة من نيجيريا عاد بها في حجته الرابعة . ولما سئل كيف تزوجها قال انه اجتمع بها وبزوجها في السفينة بين بور سودان وجدة وتصادق معهما . ولكن الرجل توفي في مكة يوم الوقوف على عرفات . وقال له وهو يحتضر : « اوصيك بزوجتي خيرا » . ولم يجد خيرا من زواجها. عاشت معه ثلاثة اعوام ، وهو وقت طويل بحساب ود الريس . وكان فرحا بها ، واعظم سروره انها كانت عاقرا . وكان يحكي للناس خصائص افعاله معها ، ويقول : « من لم يتزوج فلاتية لم يعرف الزواج » . واثناء حياته معها تزوج بامرأة من الكبابيش ، عاد بها في زيارة له الى حمرة الشيخ . لكن المرأتين لم تطيقا الحياة معا ، فطلق الفلاتية ارضاء للكباشية ، ولكن الكباشية ، بعد ذلك بقليل ، هجرته وهربت الى اهلها في حمرة الشيخ .

وضربني ودالريس بكوعه في جنبي وقال: «قالوا نسوان النصارى شيء فوق التصور». فقلت له : « لا ادري » .

فقال : «اي كلام هذا ؟ شاب مثلك في عز الشباب يعيش سبع سنين في بلاد الهنك والرنك وتقول لا ادري » .

سكتّ ، فقال ود الريس : «قبيلتكم هذه لا خير فيها . انتم رجال المرأة الواحدة — ليس فيكم غير عمك عبد الكريم . ذلك هو الرجل » .

كنا بالفعل معروفين في البلد باننا لا نطلق زوجاتنا ولا نتزوج عليهن ، وكان اهل البلد يتندرون علينا ويقولون اننا نخاف من زوجاتنا . الا عمي عبد الكريم — كان مطلاقا مزواجا ، وزانيا ايضا .

وقالت بنت مجذوب : «حريم النصارى لا يعرفن لهذا الشيء كما تعرف له بنات البلد . نساء غلف ، الحكاية عندهن كشرب الماء . بنت البلد تعمل الدلكة والدخان والريحة وتلبس الفركة القرمصيص . وحين ترقد على البرش الاحمر بعد صلاة العشاء وتفتح فخذيها ، يشعر الرجل كأنه ابو زيد الهلالي . الرجل الماعنده همة يصبح له همة » .

وضحك جدي وضحك بكري وقال ود الريس: «دعك من بنات البلد يا بنت مجذوب. النسوان البرانيات ، هؤلاء هن النساء » .

وقالت بنت مجذوب: « عقلك هو البراني » . وقال جدي: « ود الريس يحب النسوان الغير مطهرات » .

وقال ود الريس : « عليّ اليمين يا حاج احمد ، لو ذقت نساء الحبش والفلاتة كنت رميت مسبحتك وتركت صلاتك . ما بين افخاذهن كأنه الصحن المكفى ، صاغ سليم ، بكامل خيره وشره . عندنا هنا يقطعونه ويتركونه مثل الارض الخلاء » .

وقال بكري : « الختانة من شروط الاسلام » . فقال ود الريس : « اي اسلام هذا؟ اسلامك انت واسلام حاج احمد، لانكم لاتعرفون الذي يصلحكم من الذي يضركم . الفلاتة والمصريون وعرب الشام ، اليسوا مسلمين مثلنا ؟ لكنهم ناس يعرفون الاصول . يتركون نساءهم كما خلقهن الله . اما نحن فنجزهن كما تجز البهيمة » .

وضحك جدي حتى اسقط ثلاث حبات من مسبحته مرة واحدة دون وعي ، وقال : « المصريات ، مثلك لا يقدر عليهن » . وقال له ود الريس : « وما ادراك انت بالمصريات ؟ » فقال بكري بالنيابة عن جدي : « هل نسيت ان حاج احمد سافر الى مصر سنة ستة واقام فيها تسعة اشهر ؟ »

وقال جدي : « مشيت على قدمي ، ليس معي غير المسبحة والابريق » .

فقال ود الريس : « وماذا فعلت ؟ عدت كما ذهبت بالمسبحة والابريق . عليّ اليمين ، لو كنت في محلك لما عدت فارغ اليدين » .

فقال جدي : « اظنك كنت رجعت ومعك امرأة . هذا هو كل همك . انا رجعت وتمعي المال فاشتريت الارض وعمرت الساقية وطهرت اولادي » .

وقال ود الريس : « بالله يا حاج احمد ، هل ذقت الشيء المصري؟ »

كانت حبات المسبحة طول الوقت تتفلت من بين اصابع جدي ، طالعة نازلة كأنها دولاب الساقية . لكن الحركة توقفت فجأة ، ورفع جدي وجهه الى السقف وفتح فمه . ولكن بكري كان اسبق منه فقال : « انت يا ود الريس مجنون . رجل كبير لكن ما عندك فهم . النسوان نسوان في مصر او السودان او العراق او واق الواق . السوداء والبيضاء والحمراء كلهن سواسية » .

لكنه ولم يستطع ود الريس من شدة دهشته ان يقول شيئا . ونظر الى بنت مجذوب كأنه يستنجد بها . وقال جدي : « الحق لله انني كدت اتزوج في مصر . المصريون ناس طيبون ويحفظون العشرة . والمرأة المصرية تعرف قيمة الرجل . تعرفت برجل تقي في بولاق كنا نلتقي دائما في صلاة الفجر في مسجد ابو العلاء . دخلت بيته وتعرفت على اهله . كان ابو بنات عنده ست بنات كل واحدة تقول للقمر قوم وانا اقعد محلك . بعد مدة قال لي : يا سوداني انت رجل متدين وتحفظ العشرة . خليني ازوجك بنت من بناتي . الحق لله يا ود الريس نفسي مالت الى البنت الكبيرة . لكن بعدها بقليل جاني تلغراف بوفاة المرحومة امي سافرت في الساعة والحين » . وقال بكري : « رحمة الله عليها . كانت امرأة فاضلة » .

وعاد ود الريس وقال : « يا خسارة . الدنيـــا هكذا . تعطي الذي لا يريد ان يأخذ. عليّ اليمين لو كنت في محلك كنت عملت عمايل . كنت تزوجت وقعدت هناك وذقت حلاوة الحياة مع بنات الريف . ماذا ارجعك لهذه البلد الخلاء المقطوعة ؟ »

وقال بكري : « الغزال قالت بلدي شام » .

وكانت بنت مجذوب قد اوقدت سيجارة اخرى جذبت منها الدخان بسخاء وعكرت به سماء الغرفة ، فقالت لود الريس : « انت لم تعدم حلاوة الحياة حتى في هذه البلد الخلاء المقطوعة . ها انت سمين بدين لا تعجز ولا تكبر مع انك زدت على السبعين » .

فقال ود الريس : « عليّ اليمين ، سبعين سنة فقط لا تزيد يوما واحدا . انما انت شرط اكبر من حاج احمد » .

فقال له جدي : « خاف الله ياود الريس . بنت مجذوب لم تكن ولدت حين تزوجت انا . وهي اصغر منك بسنتين او ثلاث » .

فقال ود الريس : « على اي حال ، انا في يومنا هذا انشط واحد فيكم . وعليّ اليمين ، بين فخذي المرأة انا انشط من حفيدك هذا » .

فقالت بنت مجذوب : « انت تفلح في الكلام . ولا بد انك تجري وراء النساء لان بضاعتك مثل عقلة الاصبع » . فقال ود الريس : « لو كنت تزوجتني يا بنت مجذوب لوجدت شيئا مثل مدافع الانكليز » . فقالت بنت مجذوب : « المدافع سكتت وقت مات ود البشير . انت يا ود الريس راجل مخرف ، عقلك كله في راس ذكرك ، وراس ذكرك صغير مثل عقلك » .

وارتفع ضحكهم جميعا ، حتى بكري الذي كان من قبل يضحك بهدوء . وتوقف جدي عن الطقطقة بسبحته تماما ، وضحك ضحكته النحيلة الخبيثة المنطلقة . وضحكت بنت مجذوب بصوتها الرجالي المبحوح . وضحك ود الريس ضحكا اقرب الى الشخير منه الى الضحك . ومسحوا الدموع من اعينهم ، وقال جدي : « استغفر الله العظيم واتوب اليه » . وقالت بنت مجذوب : « استغفر الله . والله ضحكتونا يا جماعة . اللهم اجمعنا ثانية في ساعة خير » .

وقال بكري : « استغفر الله . اللهم اغفر لنا وارزقنا حسن الختام » .

وقال ود الريس : « استغفر الله العظيم . ايام نقضيها على وجه الارض وبعدها ربنا يفعل فينا ما يشاء » .

وهبت بنت مجذوب واقفة دفعة واحدة ، كما يهب رجل في الثلاثين ، وانتصبت بطولها ، معتدلة القامة ، لا انحناء في الظهر ولا تقوس في الكتفين . وقام بكري متحاملا على نفسه . وقام ود الريس يتكىء قليلا على عصاه . وقام جدي من فروة الصلاة وجلس على سريره ذي الارجل القصيرة . ونظرت اليهم ، ثلاثة شيوخ وامرأة شيخة ، ضحكوا برهة على حافة القبر . وفي غد يرحلون . غدا يصير الحفيد ابا والاب جدا ، وتستمر القافلة .

ثم خرجوا . وقال لي ود الريس وهو يذهب : «باكر يا افندي تتغدى معنا » .

وتمدد جدي على سريره ، ثم ضحك ، وحده هذه المرة ، كأنما يؤكد احساسه بالعزلة، بعد ان ذهب الناس الذين يضحكونه ويضحكهم . وبعد فترة قال : « هل تدري لماذا دعاك ود الريس للغداء ؟» فقلت له اننا اصدقاء وقد دعاني من قبل . فقال جدي : « انه يريد منك خدمة » .

فقلت : « ماذا يبغي ؟ »

فقال : « يبغي الزواج » .

فتضاحكت وقلت لجدي : « ما شأني بزواج ود الريس ؟ » فقال جدي : « انت وكيل العروس » .

لذت بالصمت . فقال جدي وهو يظن انني لم افهم : «ود الريس يريد ان يتزوج ارملة مصطفى سعيد » .

مرة اخرى لذت بالصمت ، فقال جدي : « ود الريس ما يزال شابا ، وهو صاحب مال . وعلى اي حال ، المرأة يلزم لها الستر . ثلاثة اعوام مرت على وفاة زوجها . الا تريد الزواج ابدا ؟ »

قلت له انني لست مسؤولا عنها . ابوها موجود واخوتها ، فلماذا لا يطلبها ود الريس منهم ؟ فقال جدي : « البلد كلها تعرف ان مصطفى سعيد جعلك وصيا على زوجته وولديه » .

قلت له انني وصي على الولدين ولكن المرأة حرة التصرف واولياؤها موجودون . فقال جدي : « انها تثق بكلامك. لو حدثتها فقد ترضى » .

احسست بغيظ حقيقي ادهشني ، اذ ان هذه الاشياء مألوفة في البلد . وقلت لجدي : انها رفضت رجالا اصغر منه سنا . انه يكبرها بأربعين عاما » . ولكن جدي اصر على ان ود الريس شاب وانه ميسور الحال وانه متأكد ان اباها لن يمانع ولكن المرأة نفسها قد ترفض ولذلك ارادوا ان يجعلوني انا واسطة خير .

حبس الغضب لساني فلذت بالصمت . وقفزت الى ذهني صورتان فاضحتان في آن واحد. ولشدة عجبي ، اتحدت الصورتان في ذهني ، وتخيلت حسنه بنت محمود، ارملة مصطفى سعيد ، هي المرأة نفسها في الحالتين — فخذان بيضاوان مفتوحتان في لندن ، امرأة تئن تحت ود الريس الكهل، قبيل طلوع الفجر في قرية مغمورة الذكر عندمنحنى النيل . ان كان ذلك شرا فهذا ايضا شر ، وان كان هذا ، مثل الموت والولادة وفيضان النيل وحصاد القمح ، جزءا من نظام الكون ، فقد كان ذلك ايضا كذلك. واتصورحسنه بنت محمود ، ارملة مصطفى سعيد ، في الثلاثين من العمر ، تبكي تحت ود الريس الذي

بلغ السبعين، ويتحول بكاؤها الى قصص من قصص ود الريس المشهورة عن نسائه الكثيرات، يتندر بها رجال البلد ، فيزداد الغيظ في صدري ضراوة . ولم استطع البقاء فخرجت ، وسمعت جدي ينادي وراءي فلم التفت . وفي بيتنا سألني ابي عن سبب غضبي فحكيت له القصة . ضحك وقال : « هل هذا شيء يثير الغضب ؟ »

قريبا من الساعة الرابعة بعد الظهر ذهبت الى بيت مصطفى سعيد ، ودخلت من باب الحوش الكبير ، ونظرت برهة الى اليسار الى الغرفة المستطيلة من الطوب الاحمر. ساكنة، لا كالمقبرة ، ولكن كسفينة القت مراسيها في عرض البحر . انما الوقت لم يحن بعد . واجلستني على كرسي في المصطبة امام الديوان ، المكان عينه ، وجاءت لي بكوب من عصير الليمون . وجاء الولدان وسلما عليّ ، الاكبر محمود اسم ابيها، والاصغر سعيد اسم ابيه . طفلان عاديان ، احدهما في الثامنة وثانيهما في السابعة ، يرتدفان حمارا كل صباح الى المدرسة على بعد ستة اميال . انها امانة في عنقي ، ومن الاسباب التي تحضرني هنا كل عام ان اتفقد احوالها . سنختنهما هذه المرة ، وسنحضر المغنين والمداحين ونقيم احتفالا يكون ذكرى مضيئة من ذكريات طفولتهما . قال : « جنبهما مشقة السفر » . انني لن افعل شيئا من هذا القبيل ؛ اذا ارادا ، حين يكبران ، ان يسافرا فليسافرا . كل احد يبدأ من اول الطريق ، والعالم في طفولة لا تنتهي .

انصرف الولدان وظلت هي واقفة امامي . قامة ممشوقة تقرب من الطول ، ليست بدينة ولكنها رياقة ممتلئة كعود قصب السكر ، لا تضع حناء في قدميها ولا في يديها ، ولكن عطراً خفيفا يفوح منها . شفتاها لعساوان طبيعةً واسنانها قوية بيضاء منتظمة في وجهها وسيم ، والعينان السوداوان الواسعتان يختلط فيهما الحزن والحياء . حين سلمت عليها احسست بيدها ناعمة دافئة في يدي . امرأة نبيلة الوقفة ، اجنبية الحسن ، ام انني اتخيل شيئا ليس موجودا حقيقة ؟ امرأة احس حين القاها بالحرج والخطر ، فاهرب منها اسرع ما استطيع . هذا هو القربان الذي يريد ود الريس ان يذبحه على حافة القبر ، ويرشي به الموت فيمهله عاما او عامين .

وظلت واقفة رغم الحاحي ، ولم تجلس الا حين قلت لها : « اذا لم تجلسي فاذهبي » بدأ الحديث بطيئا متعسرا، ومضى كذلك والشمس تنحدر نحو المغيب ، والهواء يبرد قليلا قليلا، وقليلا قليلا ايضا اخذت عقدة لساني تنحل وعقدة لسانها . وقلت لها شيئا اضحكها وارتجف قلبي من عذوبة ضحكها . وانتشر دم المغيب فجأة في الافق الغربي كدماء قوم

ملايين ماتوا في حرب عارمة نشبت بين الارض والسماء . وانتهت الحرب فجأة بالهزيمة ، ونزل ظلام كامل مستتب احتل الكون باقطابه الاربعة ، واضاع مني الحزن والحياء الذي في عينيها . لم يبقَ الا الصوت الذي دفأته الالفة والعطر الخفيف كينبوع قد يجف في اي لحظة . وفجأة قلت لها : « هل احببت مصطفى سعيد ؟ »

لم تجب . وظللت برهة انتظر ولكنها لم تجب . ثم ادركت ان الظلام والعطر كادا يخرجانني عن طوري وان ذلك سؤال لا يسأل في ذلك الزمان وذلك المكان. لكن الظلام ما لبث ان ثغر ثغرة نفذ منها صوتها الى اذني :

« كان اباً لاولادي » .

اذا صدق ظني ، فان الصوت لم يكن حزينا ، بل كانت فيه مناغاة. وتركت الصمت يوسوس لها فلعلها تقول شيئا . نعم ، ذلك هو :

« كان زوجا كريما واباً كريما . طول حياته لم يقصر معنا » .

فقلت لها وانا اميل في الظلام تجاهها : « هل كنت تعرفين من اين هو ؟ »

قالت : « من الخرطوم » .

قلت : « وماذا يعمل في الخرطوم ؟ »

قالت : « في التجارة » .

قلت : « ولماذا جاء الى هنا ؟ »

قالت : « الله اعلم » .

وكدت ايأس . ثم هبت نسمة نشطة في اتجاهي حاملة شحنة من العطر ، فوق ما كنت اطمع فيه . واستنشقت العطر واحسست بيأسي يزداد حدة . وفجأة حدثت فجوة كبيرة في الظلام ، نفذ منها صوت حزين هذه المرة ، حزنا اعمق من غور النهر . قالت : « اظنه كان يخفي شيئا » .

لاحقتها بالسؤال : « لماذا ؟ »

قالت : « كان يقضي وقتا طويلا بالليل في تلك الغرفة » .

وازددت ملاحقة : « ماذا في تلك الغرفة ؟ »

قالت : « لا ادري . اني لم ادخلها قط . المفتاح عندك . لماذا لا تتحقق بنفسك ؟ »

نعم ، هبنا قمنا انا وهي الآن ، في هذه اللحظة ، واوقدنا المصباح ، ودخلنا ، هل نجده معلقا من رقبته في السقف ، ام نجده جالسا القرفصاء على الارض ؟

سألتها مرة اخرى : « لماذا تظنين انه كان يخفي شيئا ؟ »

صوتها الآن ليس حزينا وليست فيه مناغاة ، ولكنه مشرشر الاطراف كورقة الذرة :

« احيانا بالليل في النوم ، كان يقول كلاما ... بالرطانة » .
ولاحقتها بالسؤال : « اي رطانة ؟ »
فقالت : « لا ادري . مثل الكلام الافرنجي » .
وظللت مائلا وجهتها في الظلام ، مترقبا ، منتظرا .
« كان يردد في نومه كلمات ... مثل جينا ،جيني ... لا ادري » .

في هذا المكان نفسه ، في وقت مثل هذا ، في ظلام مثل هذا ، كان صوته يطفو كاحوات ميتة طافية على سطح البحر . « ظللت اطاردها ثلاثة اعوام . كل يوم يشتد توتر وتر القوس . قوافلي ظمأى والسراب يتوهج قدامي في صحراء الشوق . في تلك الليلة حين همست جين في اذني : « تعال معي . تعال معي » ، كانت حياتي قد اكتملت ولم يكن يوجد سبب للبقاء ... » وتناهت الى اذني صرخة طفل من مكان ما في الحي ، وقالت حسنه : « كأنه كان يحس بدنو اجله . قبل اليوم ، يوم ... قبل موته باسبوع رتب كل شؤونه . كانت له اطراف جمعها ، وديون دفعها . قبل موته بيوم دعاني وحدثني بما عنده . اوصاني كثيرا على الولدين . اعطاني الرسالة المختومة بالشمع . قال لي : اعطها له اذا حدث شيء . وقال لي اذا حدث شيء فانت تكون وصيا على الاولاد . قال لي : استشيريه في كل ما تفعلين . بكيت وقلت له : ان شاء الله ما في عوج . فقال : فقط من باب الاحتياط والدنيا غير معروفة . في ذلك اليوم توسلت اليه الا ينزل الى الحقل والدنيا فيضان وغرق . كنت خائفة . لكنه قال لا داعي للخوف وانه يجيد السباحة . كنت متوجسة طول اليوم وزاد خوفي حين تأخر عن ميعاده . وانتظرنا ، ثم كان ما كان » .

واحسست بها تبكي في صمت ، ثم ارتفع بكاؤها ، وتحول الى شهيق حاد ،ارتعش له الظلام القائم بيني وبينها . ضاع العطر والصمت ، ولم يعد في الكون الا نحيب امرأة ثكلت زوجا لا تعرفه ، رجلا افرد اشرعته وضرب في عرض البحر وراء سراب اجنبي . و ود الريس الشيخ في داره يحلم بليالي الغنج تحت فركة القرمصيص . وانا ماذا افعل الآن وسط هذه الفوضى ؟هل اقوم اليها واضمها الى صدري واجفف دموعها بمنديلي واعيد الطمأنينة الى قلبها بكلماتي ؟ وقمت نصف قومة مستندا الى ذراعي ، ولكنني احسست بالخطر ، وتذكرت شيئا ، فلبثت واقفا هكذا زمنا في حالة بين الاقدام والاحجام .وبغتة هبط عليّ عناء ثقيل تهالكت تحت وطأته على المقعد . الظلام كثيف وعميق واساسي وليست حالة ينعدم فيها الضوء – الظلام الآن ثابت كأن الضوء لم يوجد اصلا ، ونجوم السماء مجرد فتوق في ثوب قديم مهلهل .العطر اضغاث احلام ،صوت لايسمع مثل اصوات ارجل النمل في تل الرمل . ونبع من جوف الظلام صوت لم يكن صوتها ، صوت ليس غاضبا

ولا حزينا ولا خائفا ، صوت مجرد ، يقول : « كان المحامون يتصارعون على جثتي . لم اكن انا المهم بل كانت القضية هي المهمة . بروفسور ماكسول فستركين من المؤسسين لحركة التسلح الخلقي في اكسفورد ، وماسوني ، وعضو في اللجنة العليا لمؤتمر الجمعيات التبشيرية البروتستنتية في افريقيا . لم يكن يخفي كراهيته لي . ايام تتلمذي عليه في اكسفورد كان يقول لي في تبرم واضح : « انت يا مستر سعيد خير مثال على ان مهمتنا الحضارية في افريقيا عديمة الجدوى ، فانت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تثقيفك كأنك تخرج من الغابة لاول مرة » . ومع ذلك فهاهو ذا يستعمل كل مهارته ليخلصني من حبل المشنقة . وسير آرثر هغنز ، تزوج وطلق مرتين ، مغامراته الغرامية معروفة ، مشهور بصلاته مع اليسار والاوساط البوهيمية . قضيت عيد الميلاد سنة ١٩٢٥ في بيته في سافرون ولدن . كان يقول لي : « انت وغد ولكنني لا اكره الاوغاد ، فانا ايضا وغد » . لكنه في هذه المحكمة سيستعمل كل مهارته ليضع حبل المشنقة حول عنقي . والمحلفون ايضا ، اشتات من الناس ، منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم والتاجر والحانوتي ، لا تجمع صلة بيني وبينهم ، لو انني طلبت استئجار غرفة في بيت احدهم فاغلب الظن انه سيرفض ، واذا جاءت ابنة احدهم تقول له انني ساتزوج هذا الرجل الافريقي ، فيحس حتما بان العالم ينهار تحت رجليه . ولكن كل واحد منهم في هذه المحكمة سيسمو على نفسه لاول مرة في حياته . وانا احس تجاههم بنوع من التفوق ، فالاحتفال مقام اصلا بسببي ، وانا فوق كل شيء مستعمر ، انني الدخيل الذي يجب ان يبت في امره . حين جيء لكتشنر بمحمود ود احمد وهو يرسف في الاغلال بعد ان هزمه في موقعة اتبرا ، قال له : « لماذا جئت بلدي تخرب وتنهب ؟ » الدخيل هو الذي قال ذلك لصاحب الارض ، وصاحب الارض طأطأ رأسه ولم يقل شيئا . فليكن ايضا ذلك شأني معهم . انني اسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة ، وقعقعة سنابك خيل التنبي وهي تطأ ارض القدس . البواخر مخرت عرض النيل اول مرة تحمل المدافع لا الخبز ، وسكك الحديد انشئت اصلا لنقل الجنود . وقد انشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول « نعم » بلغتهم . انهم جلبوا الينا جرثومة العنف الاوربي الاكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل في السوم وفي فردان ، جرثومة مرض فتاك اصابهم منذ اكثر من الف عام . نعم يا سادتي ، انني جئتكم غازيا في عقر داركم . قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ . انا لست عطيلا . عطيل كان اكذوبة » .

بينما كنت افكر في قول مصطفى سعيد وهو يجلس في هذا المكان عينه ، في ليلة مثل هذه ، كنت اسمع نشيجها بالبكاء كأنه يصلني من بعد ، يختلط في خيالي باصوات

مبعثرة لا بد انني سمعتها في اوقات متباعدة، ولكنها تداخلت في ذهني كاجراس كنيسة — صراخ طفل في مكان ما في الحي ، وصياح ديك ، ونهيق حمار ، واصوات عرس تأتي من الضفة الاخرى للنهر . لكنني الآن اسمع صوتا واحدا فقط ، صوت بكائها المض . ولم افعل شيئا . جلست حيث انا بلا حراك وتركتها تبكي وحدها لليل حتى سكتت . وكان لا بد ان اقول شيئا ، فقلت : « التعلق بالماضي لا ينفع احدا . عندك الولدان ، وانت ما زلت شابة في مقتبل العمر . فكري في المستقبل . ومن يدري ، لعلك تقبلين واحدا من الخطاب العديدين الذين يطلبونك » .

اجابت فورا ، بحزم ، الامر الذي ادهشني : « بعد مصطفى سعيد لا ادخل على رجل » .

ولم اكن انوي ان اقول لها ذلك ، ولكنني قلت : « ود الريس يريد زواجك ، وابوك واهلك لا يمانعون . كلفني ان اتوسط له عندك » .

وصمتت فترة طويلة حتى ظننت انها لن تقول شيئا ، وفكرت ان اقوم واذهب . واخيرا احسست بصوتها في الظلام كأنه نصل : « اذا اجبروني على الزواج ، فانني ساقتله واقتل نفسي » .

وفكرت في عدة اشياء اقولها ، ولكنني ما لبثت ان سمعت المؤذن ينادي : « الله اكبر . الله اكبر » لصلاة العشاء ، فوقفت ، ووقفت هي ايضا ، وخرجت دون ان اقول شيئا .

وانا اشرب قهوة الصباح جاءني ود الريس . كنت انوي الذهاب الى داره ولكنه لم يمهلني. قال انه جاء ليذكرني بدعوة البارحة، ولكنني كنت اعلم انه لم يستطع الصبر فجاء ليعرف مني نتيجة وساطتي. قلت له حالما جلس : : «لا فائدة . انها لا تريد الزواج اطلاقا . لو كنت منك لتركت هذا الموضوع البتة » .

لم اكن احسب ان الخبر سيقع عليه كما وقع فعلا. لكن ود الريس الذي يبدل النساء كما يبدل الحمير ، يجلس امامي الآن ، وجهه مربد وجفناه يرتعشان ، وقد عض شفته السفلى حتى كاد يقطعها . اخذ يتململ في مقعده وينقر الارض في عصبية بالغة بعصاه . خلع حذاءه من رجله اليمنى ولبسه عدة مرات ، وكان يتأهب للقيام ثم يجلس ، ويفتح فمه كأنه يريد ان يتكلم ثم يسكت . يا للعجب. هل معقول ان ود الريس عاشق؟ وقلت له : « لن تعدم امرأة غيرها تتزوجها » .

قال وعيناه الذكيتان لم تعودا ذكيتين ، اصبحتا كرتين من الزجاج قد استقرتا على حالة واحدة جامدة : « لن اتزوج غيرها . ستقبلني وانفها صاغر . هل تظن انها ملكة او اميرة ؟ الارامل في هذه البلد اكثر من جوع البطن . تحمد الله انها وجدت زوجا

مثلي » .

قلت له : « اذا كانت امرأة كسائر النساء فلماذا الاصرار ؟ انت تعلم انها رفضت رجالا غيرك ، بعضهم اصغر منك سنا . اذا ارادت ان تتفرغ لتربية ولديها فلماذا لا تتركونها وشأنها ؟ »

بغتة تدفق من ود الريس غضب جنوني لم اكن اظن انه من طبيعته . ثار ثورة عارمة ، وقال شيئا ادهشني حقيقة : « اسأل نفسك لماذا ترفض بنت محمود الزواج . انت السبب . لا شك ان بينك وبينها شيئا . ما دخلك انت ؟ انت لست اباها ولا اخاها ولا ولي امرها . انها ستتزوجني رغم انفك وانفها . ابوها قبل واخوانها قبلوا . الكلام الفارغ الذي تتعلمونه في المدارس لا يسير عندنا . هذه البلد فيها الرجال قوامون على النساء » .

ولا اعلم ماذا كان يحدث لولا ان ابي دخل في تلك اللحظة ، وقمت فورا وخرجت .

ورحت الى محجوب في حقله . كان محجوب في مثل سني ، قضينا طفولتنا معا ، وكنا نجلس على درجين متلاصقين في المدرسة الاولية . وكان اذكى مني . ولما انتهينا من مرحلة التعليم الاولي قال محجوب : « هذا القدر من التعليم يكفي ، القراءة والكتابة والحساب . نحن ناس مزارعون مثل آبائنا واجدادنا . كل ما يلزم المزارع من التعليم ، ما يمكّنه من كتابة الخطابات وقراءة الجرائد ومعرفة فروض الصلاة . واذا كانت لنا مشكلة نعرف كيف نتفاهم مع الحكام » . مضيت انا في ذلك السبيل ، وتحول محجوب الى طاقة فعالة في البلد ، فهو اليوم رئيس للجنة المشروع الزراعي ، والجمعية التعاونية ، وهو عضو في لجنة الشفخانة التي كادت تتم ، وهو على رأس كل وفد يقوم الى مركز المديرية لرفع الظلامات . ولما جاء الاستقلال اصبح محجوب من زعماء الحزب الوطني الاشتراكي الديمقراطي في البلد . كنا احيانا نتذاكر ايام طفولتنا في القرية فيقول لي : « لكن انظر اين انت الآن واين انا . انت صرت موظفا كبيرا في الحكومة وانا مزارع في هذه البلد المقطوعة » . فاقول له باعجاب حقيقي : « انت الذي نجحت لا انا ، لانك تؤثر على الحياة الحقيقية في القطر . اما نحن فموظفون لا نقدم ولا نؤخر . الناس امثالك هم الورثاء الشرعيون للسلطة . انتم عصب الحياة . انتم ملح الارض » . ويضحك محجوب ويقول : « اذا كنا نحن ملح الارض فهي ارض ماسخة » .

ضحك ايضا بعد ان سمع قصتي مع ود الريس وقال : « ود الريس رجل مخرف لا تعبأ بما يقول » .

قلت له : « انت تعلم ان علاقتي بها علاقة يمليها الواجب لا اكثر ولا اقل ؟ »

فقال محجوب : « لا تلتفت لتخريف ود الريس . سمعتك في البلد لا تشوبها شائبة .

اهل البلد كلهم يلهجون بحمدك لانك تقوم بالواجب نحو اولاد مصطفى سعيد ، رحمه الله ، خير قيام . لقد كان على اي حال رجلا غريبا لا تربطك به رابطة » . وسكت قليلا ثم قال : « انما اذا كان ابو المرأة واخوانها راضين فلا حيلة لاحد » .

قلت له : «لكن اذا كانت لا تريد الزواج ... » وقاطعني قائلا : « انت تعرف نظام الحياة هنا . المرأة للرجل ، والرجل رجل حتى لو بلغ ارذل العمر » .

قلت له : «ولكن الدنيا تغيرت . هذه امور لم تعد تصلح لحياتنا في هذا العصر » .

وقال محجوب : « الدنيا لم تتغير بالقدر الذي تظنه . تغيرت اشياء . طلبات الماء بدل السواقي . محاريث من حديد بدل محاريث الخشب . اصبحنا نرسل بناتنا للمدارس . راديوهات . اوتومبيلات . تعلمنا شرب الوسكي والبيرة بدل العرقى والمريسة . لكن كل شيء كما كان » . وضحك محجوب وهو يقول : «الدنيا تتغير حقيقة حين يصير امثالي وزراء في الحكومة» . واضاف وهو ما يزال يضحك : «وهذا طبعا من رابع المستحيلات» .

قلت لمحجوب ، وقد سرى عني : « هل تظن ان ود الريس وقع في غرام حسنه بنت محمود ؟ »

قال محجوب : « لا يستبعد . ود الريس رجل صبابة . وهو منذ سنتين يلهج بذكرها . وقد طلبها من قبل وابوها قبل ولكنها رفضت . وانتظروا لعلها تقبل مع مرور الزمن » .

قلت لمحجوب : « لكن لماذا هذا الغرام الفجائي ؟ ود الريس يعرف حسنه بنت محمود منذ هي طفلة . هل تذكرها طفلة شرسة تتسلق الشجر وتصارع الاولاد ؟ كانت وهي فتاة تسبح معنا عارية في النهر . ماذا جد الآن ؟ »

وقال محجوب : « ود الريس كهؤلاء الناس المغرمين باقتناء الحمير ، الواحد منهم لا تعجبه الحمارة الا اذا رأى رجلا آخر راكبا عليها . يراها حينئذ جميلة ويسعى جاهدا لشرائها حتى ولو دفع فيها اكثر مما تستحق » . وصمت مدة يفكر ثم قال : « لكن الحقيقة ان بنت محمود تغيرت بعد زواجها من مصطفى سعيد . كل النسوان يتغيرن بعد الزواج ، لكنها هي خصوصا تغيرت تغيرا لا يوصف . كأنها شخص آخر . حتى نحن انداد ها الذين كنا نلعب معها في الحي ، ننظر اليها اليوم فنراها شيئا جديدا . هل تعرف ؟ كنساء المدن » .

وسألت محجوب عن مصطفى سعيد فقال : « رحمه الله . كان يحترمني وكنت احترمه . لم تكن الصلة بيننا وثيقة اول الامر . ولكن عملنا معا في لجنة المشروع قرب بيننا . موته كان خسارة لا تعوض . هل تعلم ، لقد ساعدنا مساعدة قيمة في تنظيم المشروع . كان يتولى الحسابات . خبرته في التجارة افادتنا كثيرا . وهو الذي اشار علينا باستغلال ارباح المشروع في اقامة طاحونة للدقيق . لقد وفرت علينا اتعابا كثيرة ، واصبح الناس

اليوم يجيؤونها من اطراف البلد . وهو الذي اشار علينا ايضا بفتح دكان تعاوني . الاسعار الآن عندنا لا تزيد عن الاسعار في الخرطوم . زمان ، كما تعلم، كانت البضائع تأتي مرة او مرتين في الشهر بالباخرة . كان التجار يخزنونها حتى تنقطع كلية من السوق ، ثم يبيعونها باضعاف مضاعفة . المشروع يملك اليوم عشرة لواري تجلب لنا البضائع كل يوم والآخر مباشرة من الخرطوم وام درمان . ورجوته اكثر من مرة ان يتولى الرئاسة ولكنه كان يرفض ويقول انني اجدر منه . العمدة والتجار كانوا يكرهونه كراهية شديدة لانه فتح عيون اهل البلد وافسد عليهم امرهم . بعد موته قامت اشاعات بانهم دبروا قتله . مجرد كلام . لقد مات غرقا . عشرات الرجال ماتوا غرقا ذلك العام . كان عقلية واسعة . ذلك هو الرجل الذي كان يستحق ان يكون وزيرا في الحكومة لو كان يوجد عدل في الدنيا .

فقلت لمحجوب : « السياسة افسدتك . اصبحت لا تفكر الا في السلطة . دعك من الوزارات والحكومة وحدثني عنه كانسان . اي نوع من الناس كان هو ؟ »

وظهرت الدهشة على وجهه وقال : « ماذا تقصد اي نوع من الناس ؟ انه كان كما ذكرت لك » .

ولم استطع ان اجد الكلمات المناسبة لاوضح لمحجوب قصدي. وقال هو : « مهما يكن... ايش السبب في اهتمامك بمصطفى سعيد ؟ لقد سألتني عنه كذا مرة من قبل ؟» واستطرد محجوب قبل ان ارد على كلامه : « تعرف ؟ لا افهم لماذا جعلك وصيا على ولديه . طبعا انت تستحق شرف الامانة وقد قمت بها خير قيام . لكنك كنت اقلنا معرفة به . نحن معه هنا في البلد ، وانت كنت تراه من العام الى العام . كنت اتوقع ان يجعلني او يجعل جدك وصيا . جدك كان صديقه الحميم . كان يحب الاستماع الى حديثه . كان يقول لي : تعرف يا محجوب ؟ حاج احمد رجل فريد من نوعه . وكنت اقول له : حاج احمد رجل مخرف . فيزعل جَدْ ويقول : لا ، لا تقل هذا . حاج احمد جزء من التاريخ » .

قلت لمحجوب : « انا على اي حال وصي اسميا . الوصي الحقيقي هو انت . الولدان هنا معك . وانا بعيد في الخرطوم » .

فقال محجوب : « انهما ولدان ذكيان مؤدبان. فيهما مخايل ابيهما . سيرهما في الدراسة احسن ما يكون » .

فقلت له : « ماذا يحدث لهما اذا تم موضوع الزواج المضحك الذي يريده ود الريس ؟ »

فقال محجوب : « هوّن عليك . حتما ود الريس سينشغل بامرأة اخرى. وعلى اسوأ الفروض تتزوجه . لا اظنه يعيش اكثر من عام او عامين . ويكون لها سهم في ارضه وزرعه الكثير » .

ثم ، مثل ضربة مفاجئة تنزل على ام الرأس ، نزل عليّ قول محجوب : « لماذا لا تتزوجها انت ؟ » خفق قلبي بين جنبيّ خفقانا كاد يفلت زمامه من يدي . ولم اجد الكلمات الا بعد مدة . قلت لمحجوب وصوتي يرتجف : « لا شك انك تمزح » .

فقال « جدّ . لماذا لا تتزوجها ؟ انا متأكد انها ستقبل . انت وصي على الولدين ، وبالاحرى ان تتم الموضوع وتصبح ابا » .

واحسست بعطرها ليلة امس ، وتذكرت الافكار التي نبتت في رأسي بشأنها في الظلام. وسمعت محجوب يضحك ويقول : « لا تقل لي انك زوج واب . الرجال يتزوجون على زوجاتهم كل يوم . لن تكون اولهم ولا آخرهم » .

وقلت لمحجوب ، وقد استعدت سيطرتي على نفسي ، وانا اضحك ايضا : « انت مجنون حقا » .

وتركته وذهبت ، وان كنت قد ايقنت من حقيقة ستأخذ كثيرا من راحة بالي فيما بعد . انني ، بشكل او بآخر ، احب حسنه بنت محمود ، ارملة مصطفى سعيد . وانا ، مثله ومثل ود الريس وملايين آخرين ، لست معصوما من جرثومة العدوى التي يتنزى بها جسم الكون .

احتفلنا بختان الولدين وعدت للخرطوم . تركت زوجتي وابنتي في البلد ، وسافرت في الطريق الصحراوي في سيارة من سيارات المشروع التي ذكرها محجوب . كنت اسافر عادة بالباخرة الى ميناء كريمة النهري ، ومن هناك آخذ القطار مارا بابي حمد واتبرا الى الخرطوم . لكنني هذه المرة كنت في عجلة من امري دون سبب واضح ، ففضلت اختصار الطريق . وقامت السيارة في اول الصباح ، وسارت شرقا حذاء النيل نحو ساعتين ، ثم اتجهت جنوبا في زاوية مستقيمة وضربت في الصحراء . لا يوجد مأوى من الشمس التي تصعد في السماء بخطوات بطيئة وتصب اشعتها على الارض كأن بينها وبين اهل الارض ثأرا قديما . لا مأوى سوى الظل الساخن في جوف السيارة ، وهو ليس ظلا . طريق ممل يصعد ويهبط ، لا شيء يغري العين . شجيرات مبعثرة في الصحراء ، كلها اشواك ، ليست لها اوراق ، اشجار بائسة ليست حية ولا ميتة . تسير السيارة ساعات دون ان يعترض طريقها انسان او حيوان . ثم نمر بقطيع من الجمال هي الاخرى عجفاء ضامرة . لا توجد سحابة واحدة تبشر بالامل في هذه السماء الحارة ، كأنها غطاء الجحيم . اليوم هنا شيء لا قيمة له ، مجرد عذاب يتعذبه الكائن الحي في انتظار الليل . الليل هو الخلاص . وفي حالة

تقرب من الحمى طافت برأسي نتف من افكار ، كلمات من جمل ، وصور لوجوه واصوات تجيء كلها يابسة كالاعاصير الصغيرة التي تهب في الحقول البور . فيم العجلة ؟ سألتني: «فيم العجلة ؟ » قالت : «لماذا لا تمكث اسبوعا آخر؟» قالت ... الحمارة السوداء ، اعرابي غش عمك وباعه الحمارة السوداء. وقال ابي: «هل هذا شيء يثير الغضب ؟» عقل الانسان ليس محفوظا في ثلاجة . انها هذه الشمس التي لا تطاق. تذوب المخ . تشل التفكير .ومصطفى سعيد ، وجهه ينبع واضحا في خيالي كما رأيته اول يوم ، ثم يضيع في ازيز محركات السيارة ، وصوت احتكاك العجلات بحصى الصحراء ، واحاول جاهدا استعادته فلا استطيع . يوم الاحتفال بختان الولدين ، خلعت حسنه الثوب عن رأسها ورقصت كما تفعل الام يوم ختان ولديها . يا لها من امرأة . لماذا لا تتزوجها انت ؟ كيف كانت ايزابيلا سيمور تناجيه ؟ « اغتلني ايها الغول الافريقي . احرقني في نار معبدك ايها الاله الاسود. دعني اتلوى في طقوس صلواتك العربيدة المهيجة » وها هنا منبع النار . ها هو المعبد. لا شيء . الشمس والصحراء ونباتات يابسة وحيوانات عجفاء . ويهتز كيان السيارة حين تنحدر في وادٍ صغير . وتمر بعظام جمل نفق من العطش في هذا التيه . ويعود الى خيالي وجه مصطفى سعيد في وجه ابنه الاكبر . انه اكثر الولدين شبها به . يوم حفلة الختان انا ومحجوب شربنا اكثر مما يجب . الناس في بلدنا لرتابة الحياة عندهم يجعلون من اي حدث سعيد مهما صغر عذرا لاقامة حفل كحفل العرس . جررته من يده بالليل ، والمغنون يغنون والرجال يصفقون في قلب الدار . وقفنا قدام باب الغرفة تلك . قلت له : «انا وحدي عندي المفتاح . باب من الحديد» . قال لي محجوب بصوته المخمور : «هل تدري ما بداخلها ؟» قلت له : «نعم». قال: «ماذا؟» فقلت وانا اضحك تحت وطأة الخمر: «لا شيء. لاشيء اطلاقا». هذه الغرفة عبارة عن نكتة كبيرة. كالحياة. تحسب فيها سرا وليس فيها شيء. لا شيء اطلاقا ». وقال محجوب: «انت سكران ، هذه الغرفة مليئة من ارضها الى سقفها بالكنوز . ذهب ، وجواهر ، ودرر ولآلىء . هل تعلم من هو مصطفى سعيد؟» قلت له ان مصطفى سعيد كان اكذوبة. وضحكت مرة اخرى ضحكة مخمورة وقلت له : «هل تريد ان تعرف حقيقة مصطفى سعيد ؟» فقال محجوب: «انت لست سكرانا بل مجنون ايضا . مصطفى سعيد هو في الحقيقة نبي الله الخضر. يظهر فجأة ويغيب فجأة. والكنوز التي في هذه الغرفة هي كنوز الملك سليمان حملها الجان الى هنا. وانت عندك مفتاح الكنز. افتح ياسمسم ودعنا نفرق الذهب والجواهر على الناس» . وكاد محجوب يصرخ ويجمع الناس لولا انني اغلقت فمه بيدي . وفي الصباح استيقظ كل واحد منا في بيته لا ندري كيف وصلنا . والطريق لا ينتهي عند حد ، والشمس لا تكل . لا غرو ان مصطفى سعيد هرب الى زمهرير الشمال. ايزابيلا سيمور قالت له : « المسيحيون يقولون ان الههم صلب ليحمل وزر خطاياهم . انه

اذاً مات عبثا . فما يسمونه الخطيئة ما هو الا زفرة الاكتفاء بمعانقتك يا اله وثنيتي . انت الهي ، ولا اله غيرك » . لا بد ان هذا هو سبب انتحارها ، وليس مرضها بالسرطان . كانت مؤمنة حين قابلته . كفرت بدينها وعبدت الها كعجل بني اسرائيل . يا للغرابة . يا للسخرية . الانسان لمجرد انه خلق عند خط الاستواء ، بعض المجانين يعتبرونه عبدا وبعضهم يعتبرونه الها . اين الاعتدال ؟ اين الاستواء ؟ وجدي بصوته النحيل وضحكته الخبيثة حين يكون على سجيته ، اين وضعه في هذا البساط الاحمدي ؟ هل هو حقيقة كما ازعم انا وكما يبدو هو ؟ هل هو فوق هذه الفوضى ؟ لا ادري . ولكنه بقي على اي حال ، رغم الاوبئة وفساد الحكام وقسوة الطبيعة . وانا موقن ان الموت حين يبرز له سيبتسم هو في وجه الموت . الا يكفي هذا ؟ هل ابن آدم مطالب باكثر من هذا ؟ وبرز لنا من وراء التل اعرابي جاء يهرول نحونا ، وقطع الطريق على السيارة فتوقفنا . بدنه وثيابه بلون الارض . وسأله السائق ماذا يريد ؟ قال : « اعطوني سيجارة او تنباك لوجه الله . لي يومان لم اذق طعم التنباك » . لم يكن عندنا تنباك فاعطيته سيجارة . وقلنا بالمرة نقف قليلا ونستريح من عناء الجلوس . لم ارَ في حياتي انسانا يشرب السجائر بتلك اللهفة . جلس الاعرابي على مؤخرته واخذ يشفط الدخان بنهم فوق الوصف . بعد دقيقتين مد لي يده فاعطيته سيجارة اخرى . التهمها كما فعل مع الاولى . ثم اخذ يتلوى على الارض كأنه مصاب بالصرع . وبعدها تمدد على الارض وطوق رأسه بيديه وهمد تماما كأنه ميت . وظل هكذا طول مكوثنا ، زهاء ثلث ساعة . ولما دارت محركات السيارة ، هب واقفا ، انسانا بعث الى الحياة ، واخذ يحمدني ويدعو الله لي بطول العمر ، فرميت له علبة السجائر بما بقي فيها . وثار الغبار خلفنا ، وراقبت الاعرابي يجري نحو خيام مهلهلة عند شجيرات ناحية الجنوب ، عندها غنيمات واطفال عراة . اين الظل يا الهي ؟ مثل هذه الارض لا تنبت الا الانبياء . هذا القحط لا تداويه الا السماء . والطريق لا ينتهي والشمس لا ترحم ، والسيارة الآن تولول ولولة على ارض من الحصى مبسوطة كالمائدة . «انا قوم منقطع بنا فحدثونا احاديث نتجمل بها » . من قال هذا ؟ ثم : « كالمنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى » . والسائق لا يتكلم. امتداد للمكنة التي يديرها ، يلعنها احيانا ويشتمها ، والارض حولنا دائرة غرقى في السراب . « وظل يرفعنا آل ويخفضنا آل وتلفظنا بيد الى بيد ». محمد سعيد العباسي ، يا له من شاعر . وابو نواس . « شربنا شرب قوم ظمئوا من عهد عاد » . هذه ارض اليأس والشعر ولا احد يغني . ولقينا سيارة حكومية معطلة حولها خمسة عساكر وشاويش متدرعين البنادق . وقفنا . شربوا من مائنا واكلوا من زادنا واعطيناهم البنزين . قالوا ان امرأة من قبيلة المريصاب قتلت زوجها والحكومة ذاهبة لتقبض عليها . ما اسمها ؟ ما

اسمه؟ لماذا قتلته ؟ لا يعلمون—فقط انها من قبيلة المريصاب وانها قتلته وانه زوجها. ولكنهم سيعرفونه . قبائل المريصاب والهواوير والكبابيش . القضاة المقيم منهم والمتنقل . مفتش شمالي كردفان ، مفتش جنوبي الشمالية ، مفتش شرقي الخرطوم . الرعاة على مساقط الماء. المشائخ والنظار . البدو في خيام الشعر ، في مفارق الوديان . كلهم سيعرفون اسمها ، فليس كل يوم تقتل امرأة رجلا ، بله زوجها ، في هذه الارض التي لم تترك الشمس فيها قتلا لقاتل . وخطرت لي فكرة ، قلبتها في ذهني ثم قررت ان اعبر عنها واري ما يحدث . قلت لهم انها لم تقتله بل هو مات من ضربة الشمس ، كما ماتت ايزابيلا سيمور وشيلا غرينود وآن همند وجين مورس . لم يحدث شيء . وقال الشاويش : « كان عندنا قمندان بوليس ملعون اسمه ماجور كوك » . لا فائدة . لا دهشة . وساروا وسرنا . الشمس هي العدو . انها الآن في كبد السماء تماما ، كما يقول العرب . يا للكبد الحرى. وستظل هكذا ساعات لا تتحرك ، او هكذا يخيل للكائن الحي ، حتى يئن الحجر ويبكي الشجر ويستغيث الحديد . بكاء امرأة تحت رجل عند الفجر ، وفخذان بيضاوان مفتوحتان. هما الآن كعظام الجمال الجافة المتناثرة في الصحراء . لا طعم . لا رائحة . لا خير . لا شر . عجلات السيارة تصدم الحصى بحقد. طريقه المعوج سرعان ما يؤدي به الى الكارثة. وفي الغالب تكون الكارثة واضحة امامه وضوح الشمس ، بحيث اننا نعجب كيف ان رجلا ذكيا كهذا ، هو في الحقيقة في غاية الغباء . انه منح قدرا عظيما من الذكاء ولكنه حرم الحكمة . انه احمق ذكي . هذا ما قاله القاضي في الاولد بيلي قبل ان يصدر الحكم . والطريق لا ينتهي والشمس واضحة وضوح الشمس . ساكتب لمسز روبنسن . تعيش في شانكلن في آيل اف وايت . علق عنوانها بذاكرتي من حديث مصطفى سعيد تلك الليلة. زوجها مات بالتايفوئيد ودفن في القاهرة في مقبرة الامام الشافعي . نعم ، اعتنق الاسلام . مصطفى سعيد قال انها حضرت المحاكمة من اولها الى آخرها . كان هادئا طول المدة . بعد ان صدر الحكم بكى على صدرها . مسحت رأسه وقبلته على جبهته وقالت: « لا تبكِ يا طفلي العزيز ». لم تكن تحب جين مورس . حذرته من زواجها . ساكتب لها فلعلها تلقي الضوء ، لعلها تذكر اشياء هو نسيها او اهمل ذكرها . وانتهت الحرب فجأة بالنصر . شفق المغيب ليس دما ولكنه حناء في قدم المرأة ، والنسيم الذي يلاحقنا من وادي النيل يحمل عطرا لن ينضب في خيالي ما دمت حيا . وكما تحط قافلة رحالها حططنا رحلنا . بقي من الطريق اقله . طعمنا وشربنا . صلى اناس صلاة العشاء والسواق ومساعدوه اخرجوا من اضابير السيارة قناني الخمر ، وانا استلقيت على الرمل واشعلت سيجارة وتهت في روعة السماء . والسيارة ايضا سقيت الماء والبنزين والزيت ، وهي الآن ساكنة راضية كمهرة في مراحها . انتهت الحرب بالنصر لنا جميعا ، الحجارة والاشجار والحيوانات والحديد ، وانا الآن

تحت هذه السماء الجميلة الرحيمة احس اننا جميعا اخوة . الذي يسكر والذي يصلي والذي يسرق والذي يزني والذي يقاتل والذي يقتل . الينبوع نفسه . ولا احد يعلم ماذا يدور في خلد الاله . لعله لا يبالي . لعله ليس غاضبا . في ليلة مثل هذه تحس انك تستطيع ان ترقى الى السماء على سلم من الحبال . هذه ارض الشعر والممكن وابنتي اسمها آمال . سنهدم وسنبني وسنخضع الشمس ذاتها لارادتنا وسنهزم الفقر باي وسيلة . السواق الذي كان صامتا طول اليوم ها قد ارتفعت عقيرته بالغناء . صوت عذب سلسبيل لا تحسب انه صوته . يغني لسيارته كما كان الشعراء في الزمن القديم يغنون لجمالهم :

دِرِ كْسوَنكْ مخرطَة وقايم على بولادْ
وغيرْ ستّ النفورْ الليلة ما في رقادْ

وارتفع صوت آخر يجاوبه :

ناوين السفرْ من دار كولْ والكَمبو
هوزز راسه فرحانْ بالسفرْ يقنبُهْ
أبْ دومات غرفنْ عرُقه اتنادنْ بُهْ
ضرب الفِجّة واصبحْ نارُه تا كلَ الجنْبُهْ

ثم نبع صوت ثالث يجاوب الصوتين :

واوحيحِي ووا وجعْ قلبي
من صيدة القنيصْ الفترت كلبي
القاري العلمْ من دينه بتسِلْبي
والماشي الحجاز من جدّه بتقلْبي

نحن هكذا وكل سيارة تمر بنا طالعة او نازلة ، تقف ، حتى اجتمعت قافلة عظيمة ، اكثر من مائة رجل طعموا وشربوا وصلوا وسكروا . ثم تحلقنا حلقة كبيرة ، ودخل بعض الفتيان وسط الحلقة ورقصوا كما ترقص البنات . وصفقنا وضربنا الارض بارجلنا وحمحمنا بحلوقنا ، واقمنا في قلب الصحراء فرحا للاشيء. وجاء احد بمذياعه الترانزستور ، وضعناه وسط الدائرة ، وصفقنا ورقصنا على غنائه . وخطرت لاحد فكرة ، فصف السواقون سياراتهم على هيئة دائرة وسلطوا اضواءها على حلقة الرقص ، فاشتعلت شعلة من الضوء لا احسب تلك البقعة رأت مثلها من قبل . وزغرد الرجال كما تزغرد النساء وانطلقت ابواق السيارات جميعا في آن واحد . وجذب الضوء والضجة البدو من شعاب الوديان وسفوح التلال المجاورة ، رجالا ونساء ؛ قوم لا تراهم بالنهار كأنهم يذوبون تحت ضوء الشمس . اجتمع خلق عظيم ودخلت الحلقة نساء حقيقيات ، لو رأيتهن نهارا لما اعرتهن نظرة ، ولكنهن جميلات في هذا الزمان والمكان . وجاء اعرابي بخروف وكأه

وذبحه وشوى لحمه على نار اوقدها . واخرج احد المسافرين من السيارة صندوقين من البيرة وزعهما وهو يهتف : « في صحة السودان . في صحة السودان » . ودارت صناديق السجائر وعلب الحلوى ، وغنت الاعرابيات ورقصن ، وردد الليل والصحراء اصداء عرس عظيم كأننا قبيل من الجن . عرس بلا معنى ، مجرد عمل يائس نبع ارتجالا كالاعاصير الصغيرة التي تنبع في الصحراء ثم تموت . وعند الفجر تفرقنا . عاد الاعراب ادراجهم الى شعاب الاودية . فصايح الناس : « مع السلامة . مع السلامة » . وركضوا كل الى سيارته . ازت المحركات ، وتحولت الاضواء من المكان الذي كان قبل لحظات مسرح انس ، فعاد الى سابق عهده ، جزءا من الصحراء . واتجهت اضواء السيارات ، بعضها نحو الجنوب صوب النيل ، وبعضها نحو الشمال صوب النيل . وثار الغبار واختفى ثم ثار واختفى . وادركنا الشمس على قمم جبال كررى اعلى ام درمان .

دارت الباخرة حول نفسها حتى لا تكون المحركات في مجرى التيار . كل شيء كما يحدث كل مرة . الصفارة المبحوحة ، والقوارب من الشاطىء المقابل ، شجر الجميز واللغط على رصيف المحطة . الا من فارق عظيم . وخرجت وصافحني محجوب وهو يتجنبني بنظراته . كان وحده في استقبالي هذه المرة . وكان خجلا كأنه يحس بالذنب ، او كأنه يحملني انا المسؤولية . ولم اكد اصافحه حتى قلت له : « كيف تركتم هذا يحدث ؟ » قال محجوب وهو يسوي سرج الحمارة السوداء الطويلة ، حمارة عمي عبدالكريم : « الذي كان يكان . الولدان بخير وهما عندي » . انني لم افكر في الولدين طوال هذه الرحلة المشؤومة . كنت افكر فيها . قلت لمحجوب مرة اخرى : « ماذا حدث ؟ » ما يزال يتجنب وجهي . ظل صامتا . اصلح الفروة على السرج ، وربط البطان حول بطن حماره . ازاح السرج الى الامام قليلا وامسك عنان اللجام ثم قفز . ظللت واقفا انتظر الرد الذي لم يأت ، فقفزت انا ايضا . قال وهو يلكز حماره : « كما اخبرتك في البرقية . لا فائدة من الخوض في الموضوع . لم نكن نتوقع حضورك على اي حال » . قلت له اشجعه على الكلام : « ليتني عملت بنصيحتك وتزوجتها » . لم استفد سوى انني زدت صمته عمقا . ولا بد انه كان غاضبا ، فقد لكز الحمار لكزة قوية بكعبه والحمار لم يفعل شيئا . قلت له وانا الاحقه : « منذ وصلتني برقيتك وانا لم آكل ولم انم ولم اتكلم مع انسان . ثلاثة ايام في الخرطوم بالقطار والباخرة وانا افكر واسأل نفسي كيف حدث ما حدث ولا اجد جواب » . وكأنما رثى لحالي فقال بعطف : « هذه اسرع مرة تعود فيها الى البلد » . قلت

له : « نعم . اثنان وثلاثون يوما بالضبط ». قال : « هل من جديد في الخرطوم ؟ » قلت له : « كنا مشغولين في مؤتمر » . بدا الاهتمام على وجهه ، فانه يحب اخبار الخرطوم ، خاصة اخبار الفضائح والرشاوى وفساد الحكام . قال باهتمام بالغ واضح ، وقد حز في نفسي انه نسي ما نحن فيه : « بماذا يأتمرون هذه المرة ؟ » قلت له باعياء ، وقد فضلت اختصار الطريق : « وزارة المعارف نظمت مؤتمرا دعت له مندوبين عن عشرين قطرا افريقيا لمناقشة سبل توحيد اساليب التعليم في القارة كلها . كنت انا عضوا في سكرتارية المؤتمر » . قال محجوب : « فليبنوا المدارس اولا ثم يناقشوا توحيد التعليم . كيف يفكر هؤلاء الناس ؟ يضيعون الوقت في المؤتمرات والكلام الفارغ ونحن هنا اولادنا يسافرون كذا ميلا للمدرسة . ألسنا بشرا ؟ ألسنا ندفع الضرائب ؟ أليس لنا حق في هذا البلد ؟ كل شيء في الخرطوم . ميزانية الدولة كلها تصرف في الخرطوم . مستشفى واحد في مروى نسافر له ثلاثة ايام . النساء يمتن في الوضع . لا توجد داية واحدة متعلمة في هذه البلد وانت ماذا تصنع في الخرطوم ؟ ما الفائدة ان يكون لنا ابن في الحكومة ولا يفعل شيئا ؟ »

كانت حماقتي قد فاتته ، فجذبت لجامها حتى يلحق بي وآثرت الصمت . لو كان الوقت غير هذا الوقت لصرخت في وجهه ، فانا وهو هكذا منذ طفولتنا ، يصرخ احدنا على الآخر حين يغضب . ثم نرضى وننسى . ولكنني جائع ومتعب وقلبي مثقل بهم عظيم . لو كان الزمان احسن مما هو عليه الآن ، لاضحكته واغضبته بقصص ذلك المؤتمر . لن يصدق ان سادة افريقيا الجدد ، ملس الوجوه ، افواههم كافواه الذئاب ، تلمع في ايديهم ختم من الحجارة الثمينة ، وتفوح نواصيهم برائحة العطر ، في ازياء بيضاء وزرقاء وسوداء وخضراء من الموهير الفاخر والحرير الغالي تنزلق على اكتافهم كجلود القطط السيامية ، والاحذية تعكس اضواء الشمعدانات ، تصر صريرا على الرخام — لن يصدق محجوب انهم تدارسوا تسعة ايام في مصير التعليم في افريقيا في « قاعة الاستقلال » التي بنيت لهذا الغرض ، وكلفت اكثر من مليون جنيه ، صرح من الحجر والاسمنت والرخام والزجاج ، مستديرة كمعظم الاستدارة ، وضع تصميمها في لندن ، ردهاتها من رخام ابيض جلب من ايطاليا ، وزجاج النوافذ ملون ، قطع صغيرة مصفوفة بمهارة في شبكة من خشب التيك ، ارضية القاعات مفروشة بسجاجيد عجمية فاخرة ، والسقف على شكل قبة مطلية بماء الذهب ، تتدلى من جوانبها شمعدانات كل واحد منها بحجم الجمل العظيم . المنصة حيث تعاقب وزراء التعليم في افريقيا طوال تسعة ايام من رخام احمر كالذي في قبر نابليون في الانفاليد ، وسطحها املس لماع من خشب الابنوس . على الحيطان لوحات زيتية ، وقبالة المدخل خريطة واسعة لافريقيا من المرمر الملون ، كل قطر بلون . كيف اقول لمحجوب ان الوزير الذي قال في خطابه

الضافي الذي قوبل بعاصفة من التصفيق : « يجب الا يحدث تناقض بين ما يتعلمه التلميذ في المدرسة وبين واقع حياة الشعب . كل من يتعلم اليوم يريد ان يجلس على مكتب وثير تحت مروحة ويسكن في بيت محاط بحديقة مكيف بالهواء . يروح ويجيء في سيارة امريكية بعرض الشارع . اننا اذا لم نجتث هذا الداء من جذوره تكونت عندنا طبقة برجوازية لا تمت الى واقع حياتنا بصلة ، وهي اشد خطرا على مستقبل افريقيا من الاستعمار نفسه » — كيف اقول لمحجوب ان هذا الرجل بعينه يهرب اشهر الصيف من افريقيا الى فيلته على بحيرة لوكارنو ، وان زوجته تشتري حاجياتها من هرودز في لندن ، تجيئها في طائرة خاصة ، وان اعضاء وفده انفسهم يجاهرون بانه فاسد مرتش ، ضيع الضياع واقام تجارة وعمارة ، وكون ثروة فادحة من قطرات العرق التي تنضح على جبـاه المستضعفين انصاف العراة في الغابات ؟ هؤلاء قوم لا همّ لهم الا بطونهم وفروجهم . لا يوجد عدل في الدنيا ولا اعتدال. وقد قال مصطفى سعيد : « انما انا لا اطلب المجد ، فمثلي لا يطلب المجد » . لو انـه عاد عودة طبيعية لانضم الى قطيع الذئاب هذا . كلهم يشبهونه ، وجوه وسيمة ووجوه وسمتها النعمة . وقد قال احد الوزراء اولئك في حفلة اختتام المؤتمر انه كان استاذه . اول ما يدموني له هتف : « انك تذكرني بصديق عزيز كنت على صلة وثيقة به في لندن . الدكتور مصطفى سعيد . كان استاذي عام ١٩٢٨ . كان هو رئيسا لجمعية الكفاح لتحرير افريقيا وكنت انا عضوا في اللجنة . يا له من رجل . انه من اعظم الافريقيين الذين عرفتهم . كانت له صلات واسعة . يا الهي ، ذلك الرجل . كانت النساء تتساقط عليه كالذباب . كان يقول لأحرر افريقيا بـ ... ي». وضحك حتى بانت مؤخرة حلقه . واردت ان اسأله ، لكنه اختفى في زحمة الرؤساء والوزراء . مصطفى سعيد لم يعد يعنيني الآن ، فقد شغلت عنه بنفسي . برقية محجوب غيرت كل شيء . حين قرأت رد مسز روبنسن على رسالتي اول مرة احسست بفرح عظيم . وفي القطار قرأتها للمرة الثانية ، محاولا ان ابعد افكاري عن تلك النقطة التي صارت محور دورانها . ولكن دون جدوى .

« ومضت الحمير تتقاذف الحجارة باظلافها ، وقال محجوب : « لماذا صمت كأنك ابكم ؟ لماذا لا تقول شيئا ؟ » قلت له : « الموظفون امثالي لا يستطيعون ان يغيروا شيئا . اذا اردت سادتنا افعلوا كذا فعلنا . انت رئيس الحزب الوطني الاشتراكي الديمقراطي هنا . انه الحزب الحاكم . لماذا لا تصب غضبك عليهم ؟ »

وقال محجوب كالمعتذر : « لولا ... لولا ان هذه الكارثة قد ... يوم الحادث كنا نذهب للسفر في وفد للمطالبة ببناء مستشفى كبير ومدرسة وسطى للبنين ومدرسة اولية للبنات ومدرسة زراعة و... » وقطع خطبته فجأة ولاذ بصمته الغاضب . ونظرت انا

الى النهر الى يسارنا يلمع بالخطر ويدوي باصوات مبهمة . ثم امامنا القباب العشر وسط المقبرة . وحزت الذكرى في قلبي ، وقال محجوب: « دفناها اول الصباح دون ضوضاء. امرنا النساء الا يبكين . لم نقم مأتما ولم نخبر احدا . كان سيجيئنا البوليس . وتحقيق وفضائح ». قلت له بذعر : « لماذا البوليس ؟ » نظر اليّ برهة ثم سكت ، وبعد مدة طويلة قال : « بعد اسبوع او عشرة ايام من سفرك ، ابوها قال انه اعطى ود الريس وعداً. عقدوا له عليها. ابوها شتمها وضربها وقال لها :تتزوجينه رغم انفك . انا لم احضر العقد. لم يحضر احد العقد غير بكري وجدك وبنت مجذوب . اصدقاؤه . انا شخصيا حاولت ان اثني ود الريس عن عزمه ، ولكنه اصر . كأنما اصابه هوس . وكلمت اباها فقال انه لا يصبح اضحوكة ، يقول الناس ابنته لا تسمع كلامه . بعد الزواج قلت لود الريس يأخذها بالسياسة . اقامت عنده اسبوعين لا تكلمه ولا يكلمها . كانت ... كان في حالة لا توصف . كالمجنون . اشتكى لطوب الارض . يقول كيف تكون في بيته امرأة تزوجها بسنة الله ورسوله ولا يكون بينها ما يكون بين الزوج وزوجته . كنا نقول له : اصبر ثم ... »

الحمار والحمارة نهقا بغتة في آن واحد حتى كدت اسقط من السرج . ولبثت اسأل يومين بطولهما ولا احد يقول لي . كلهم كانوا يتجنبونني بنظراتهم كأنهم شركاء في اثم عظيم . وقالت لي امي : « لماذا تركت عملك وجئت ؟ » قلت لها: « الولدان» . نظرت اليّ برهة نظرة فاحصة وقالت : « الاولاد ام امّ الاولاد ؟ ماذا كان بينك وبينها؟ جاءت لابيك وقالت له بلسانها : قولوا له يتزوجني . يا للجرأة وفراغة العين . نساء آخر زمن وكله كوم والفعل القبيح الذي فعلته كوم » .

وجدي ايضا لم يسعفني بشيء . وجدته راقدا على سريره في حالة من الاعياء لم اعرف فيه . كان كأنما ينبوع الحياة عنده قد نضب فجأة . ظللت جالسا وظل هو لا يتكلم فقط يتأوه من آن لآخر ، ويتقلب على سريره ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . كلما فعل ذلك احس بوخز ، كأن بيني وبين الشيطان سببا . وبعد انتظار طويل قال يخاطب سقف الغرفة : « لعنة الله على النسوان . النسوان اخوات الشيطان . ود الريس ، ود الريس » وانفجر جدي يبكي . انني لم اره يبكي في حياتي. بكى طويلا ثم مسح دموعه بطرف ثوبه وصمت حتى ظننته قد نام . بعد زمن قال : « رحمة الله عليك يا ود الريس . اللهم اغفر له وتغمده برحمتك » . وتمتم بدعوات وقال: « كان رجلا عديم النظير ، دائما يضحك دائما تجده وقت الشدة . لم يطلب منه احد حاجة وقال لا . ليته سمع كلامي . ينتهي هذه النهاية . لا حول ولا قوة الا بالله . اول مرة يحصل شيء مثل ذلك في هذه البلد منذ خلقها الله . محن آخر الزمن » . تشجعت وسألته : « ماذا حدث ؟ »

لم يحفل بسؤالي وتشاغل زمنا بمسبحته ثم قال : « تلك القبيلة لا يجيء من ورائها الا الشر . قلت لود الريس : هذه المرأة شؤم . ابعد عنها . انما الاجل ... ».

في صبيحة اليوم الثالث حملت زجاجة الوسكي في جيبي وذهبت الى بنت مجذوب . اذا لم تقل لي بنت مجذوب فلن يقول لي احد . وصبت بنت مجذوب من الزجاجة في اناء كبير من الالمون ، وقالت : « لا بد انك تريد شيئا . نحن لا نعرف هنا مثل خمر المدن هذه » .

قلت لها : « اريد ان اعرف ما حدث . لا احد يريد ان يخبرني » .

شربت جرعة كبيرة من الاناء وقطبت وجهها وقالت: « الفعل الذي فعلته بنت محمود لا يجري به اللسان . شيء ما رأينا ولا سمعنا بمثله لا في الزمن السابق ولا اللاحق ».

وتماسكت ، ولبثت انتظر صابرا حتى مضى ثلث الزجاجة والخمر لا تؤثر فيها ، الا من بهجة في وجهها تزداد وضوحا مع الشراب . اغلقت بنت مجذوب الزجاجة وقالت :«هذا يكفي . خمر النصارى هذه جبارة ، ليست كعرق التمر » .

نظرت اليها بضراعة فقالت : « الكلام الذي ساقوله لك لن تسمعه من انسان في البلد. دفنوه مع بنت محمود ومع ود الريس المسكين . كلام عيب صعب ان يقال» . ثم نظرت الي نظرة فاحصة بعينيها الجريئتين وقالت :

« هذا كلام لن يعجبك . خصوصا اذا ... » واطرقت برهة فقلت لها : « اريد ان اعرف ما حدث كبقية الناس . لماذا انا الوحيد الذي لا يصح له ان يعرف ؟ »

اعطيتها سيجارة جذبت منها وقالت : « بعد صلاة العشاء بزمن استيقظت على صراخ حسنه بنت محمود في دار ود الريس . كانت البلد ساكنة لا تسمع فيها حسا . الحق لله انني ظننت ان ود الريس اخيرا نال حقه منها . الرجل المسكين اشرف على الجنون . اسبوعين مع المرأة لا تكلمه ولا تدعه يقربها . وفتحت اذني مدة وهي تصرخ وتولول . اللهم يا رب اغفر لي . ضحكت وانا اسمع صراخها . قلت في نفسي : ود الريس ما تزال فيه بقية . واشتد الصراخ . وسمعت حركة في بيت بكري لصق بيت ود الريس . وسمعت بكري يصيح : يا راجل اختشي على دمك . لازم تعمل لك فضيحة وهلولة . ثم سمعت سعيدة امرأة بكري تقول : يا بت محمود احفظي شرفك ، ما هذه الفضائح ؟ العروس البكر لا تعمل هذا العمل . كأنك لم تجربي الرجال من قبل . واخذ صراخ بنت محمود يشتد ، ثم سمعت ود الريس يصرخ باعلى صوته : يا بكري . يا حاج احمد . يا بت الريس .ياجماعة. بت محمود قتلتني . قفزت وثوبي يجرجر وراءي لا يكاد يسترني ، وخبطت باب بكري وباب محجوب ، وجريت الى باب ود الريس فوجدت باب الحوش مغلقا . ولولت باعلى

صوتي وجاء محجوب ثم بكري ثم اجتمع علينا الناس . ونحن نكسر باب الحوش سمعنا صرخة . صرخة واحدة تهد الجبال من ود الريس.ثم صرخةمثلها من بنت محمود .ودخلنا انا ومحجوب وبكري . قلت لمحجوب : احبس الناس من دخول البيت . لا تدع امرأة تدخل البيت . وخرج محجوب وصرخ في الناس ، وعاد ومعه عمك عبد الكريم وسعيد والطاهر الرواسي وحتى جدك المسكين جاء من بيته » .

اخذ العرق يتصبب بغزارة من وجه بنت مجذوب . وجف حلقها واشارت الى الماء فجئتها به . شربت ومسحت العرق من وجهها وقالت : « استغفر الله العظيم واتوب اليه . وجدناهما في غرفة ود الريس القصيرة المطلة على الشارع . كان المصباح موقدا . ود الريس عار كما ولدته امه . وبنت محمود ثوبها ممزق وسراويلها . هي الاخرى عارية . كان البرش الاحمر يعوم في الدم . ورفعت المصباح . وجدت بنت محمود معضوضة ومخدشة في كل شبر من جسمها . بطنها . اوراكها . رقبتها . عض حلمة نهدها حتى قطعها . الدم يسيل من شفتها السفلى . لا حول ولا قوة الا بالله . و ود الريس مطعون اكثر من عشر طعنات . طعنته في بطنه وفي صدره وفي محسنه » . ولم تستطع بنت مجذوب ان تستمر . بلعت ريقها بصعوبة وارتعش حلقومها ثم قالت : « اللهم لا اعتراض على حكمك . وجدناها على ظهرها والسكين مغروز في قلبها . فمها مفتوح ، وعيناها تبحلقان كأنها حية . و ود الريس لسانه مدلدل بين فكيه ، وذراعاه مرفوعتان في الهواء » .

وغطت بنت مجذوب وجهها بيدها والعرق يتصبب من بين اصابعها وقد اخذ صدرها يعلو ويهبط بسرعة وتتابع . قالت بصعوبة : « استغفر اللهالعظيم . كانا قد ماتا لساعتهما كان الدمحارا يبقبق من قلب بنت محمودوبين فخذي ود الريس . الدم ملأ البرش والسرير وجرى جداول في ارض الغرفة . محجوب اطال الله عمره كان رابط الجأش . حين سمع صوت محمود قفز خارجا وقال لابيك : اياك ان تدعه يدخل . محجوب وبقية الرجال حملوا ود الريس ، وانا وزوجة بكري والنساء الكبار اخذنا بنت محمود . كفناهما في ليلتها . وحملوهما قبل طلوع الشمس . ودفنوهما ، هي بجوار امها وهو بجوار زوجته الاولى بنت رجب . بعض النساء بدأن مأتما . ولكنمحجوب بارك الله فيه جاء وانتهرهن وقال : التي تفتح فمها ساقطع رقبتها . اي مأتم يا ولدي يقام في هذه الحالة ؟ هذه مصيبة كبيرةحصلت في البلد. طول حياتنا تحت ستر الله. آخر الزمن يحصل علينامثل هذا. استغفرك واتوب اليك يا رب » .

وبكت هي ايضا كما بكى جدي . بكت طويلا وبحرقة ، ثم ابتسمت من خلال دموعها وقالت : « العجيب في الامر ان زوجته الكبيرة مبروكة لم تصح من نومها طول هذه المدة ، مع ان الصباح جذب الناس من طرف المحلة . رحت اليها وهززتها فرفعت

رأسها وقالت: « بنت مجذوب، ماذا جاء بك في هذا الوقت ؟ » قلت لها : « قومي . حصلت قتلة في بيتكم ». فقالت : « قتلة من ؟ » قلت لها : « بنت محمود قتلت ود الريس وقتلت نفسها ». فقالت: « في ستين داهية » ، وواصلت نومها . وكنا ونحن نجهز بنت محمود نسمع شخيرها . ولما عاد الناس من الدفن وجدناها جالسة تشرب قهوتها . بعض النساء اردن ان يبكين معها فصرخت فيهن : « يا نساء . كل واحدة تروح في حالها . ود الريس حفر قبره بيده . وبنت محمود بارك الله فيها ، خلصت منه القديم والجديد ». ثم زغردت . اي والله يا ولدي ، زغردت . وقالت للنساء : « نكاية فيكن . التي لا يعجبها تشرب البحر». استغفر الله العظيم . ابوها ... محمود في تلك الليلة كاد يهلك من البكاء . يخور كالثور . وجدك شتم وضرب بعصاه وزعق وبكى . عمك عبدالكريم اشتبك مع بكري دون سبب . قال له : يحصل ذبح بجوارك وانت نائم ؟ البلد كلها كأنما حلت عليهم الشياطين في تلك الليلة. محجوب وحده كان رابط الجأش. جهز كل شيء . احضر الاكفان لا ندري من اين . اولاد ود الريس عملوا دوشة فاسكتهم . منظر لا اراك الله مثله يا ولدي ، يفطر القلب ، يشيب الوليد . وكله بلا سبب ولا طلب . انها قبلت الرجل الغريب ، لماذا لم تقبل ود الريس ؟ »

الحقول نيران ودخان. هذا اوان الاستعداد لزراعة القمح . ينظفون الارض ويجمعون اعواد الذرة والجذوع الصغيرة ، ذكريات الموسم الذي انتهى ، ويكومونها اكواما وسط الحقول ويحرقونها . الارض سوداء مبسوطة تستعد للحدث القادم . الرجال قاماتهم منحنية على المعاول وبعضهم خلف المحاريث . قمم النخل ترتعش للهواء الخفيف وتسكن، وبخار حاريصّاعد من حقول البرسيم المروية ، تحت وطأة الشمس في منتصف النهار . ومع كل هبة ريح يفوح اريج الليمون والبرتقال واليوسفندي . خوار ثور او نهيق حمار او صوت فأس في الحطب . ولكن الدنيا قد تغيرت .

ووجدت محجوبا ملطخا بالطين ، يندى العرق من جسمه العاري الا من خرقة حول وسطه ، يحاول ان يفصل شتلة عن النخلة الأم . لم احيّه ولم يلتفت اليّ وظل يحفر حول الشتلة . لبثت واقفا اراقبه ، ثم اشعلت سيجارة ومددت له الصندوق ، فرفض باشارة من رأسه . حملت همي الى جذع نخلة قريبة اسندت رأسي اليه . لا مكان لي هنا . لماذا لا احزم حقيبتي وارحل ؟ هؤلاء القوم لا يدهشهم شيء . حسبوا لكل شيء حسابه . لا يفرحون لمولد ولا يحزنون لموت . حين يضحكون يقولون : « استغفر الله » وحين يبكون يقولون : « استغر الله » . لا يقولون : وانا ماذا تعلمت ؟ تعلموا الصمت والصبر من النهر والشجر . وانا ماذا تعلمت ؟ ولاحظت محجوبا عاضا شفته السفلى كعادته حين يكون

مصمما على عمل . كنت اغلبه في المصارعة والجري ، ويغلبني في سباحة النهر الى الشاطىء الآخر وتسلق النخل . لا تستعصي نخلة عليه . بيني وبينه من الودّ كأنه اخ شقيق . ولعن محجوب النخلة الصغيرة حين نجح اخيرا في فصلها عن جذع امها دون ان يكسر جذورها. ردم بالتراب الجرح الكبير الذي بقي في الجذع حيث كانت ، وقص جريد الشتلة ، وازال عنها التراب ، ورماها لتجف في الشمس . قلت في نفسي انه سيكون اكثر استعدادا للكلام الآن . جاء الى الظل حيث انا وجلس ومدد رجليه . ظل صامتا برهة ثم تنهد وقال : « استغفر الله » . مد يده فاعطيته سيجارة . لا يدخن الا حين اكون انا في البلد، يقول : « نحرق فلوس الحكومة » . رمى السيجارة قبل ان يكملها وقال : « انت تبدو مريضا . لا بد ان الرحلة قد ارهقتك . لم يكن يلزم حضورك . حين ارسلت لك البرقية لم اكن اتوقع ان تحضر ».

قلت كأنني احدث نفسي : « انها قتلته وقتلت نفسها . طعنته اكثر من عشر طعنات و ... يا للبشاعة » .

التفت اليّ بدهشة وقال : « من اخبرك ؟ »

مضيت غير مكترث لسؤاله : « عضّ حلمة نهدها حتى قطعها وعضها وخدشها في كل شبر في جسمها . يا للبشاعة » .

صاح محجوب بغضب : « لا بد ان بنت مجذوب هي التي اخبرتك . لعنها الله . لا تمسك لسانها . هذا كلام لا يصح ان يقال » .

قلت له : « يقال او لا يقال ، انه حدث . حدث امام اعينكم ولم تفعلوا شيئا . وانت ... انت زعيم ورئيس في البلد ولم تفعل شيئا » .

وقال محجوب : « ماذا نفعل ؟ لماذا لم تفعل انت ؟ لماذا لم تتزوجها ؟ فقط تفلح في الكلام . المرأة هي التي تجرأت وقالت . عشنا ورأينا النساء تخطب الرجال ».

قلت له : «ماذا قالت ؟ »

قال : « الذي كان قد كان . ما فائدة الكلام؟ احمد الله انك لم تتزوجها . الفعل الذي فعلته ليس فعل بني آدم . فعل شياطين » .

قلت له وانا اضغط على اسناني : « ماذا قالت ؟ »

نظر اليّ دون عطف وقال : « حين راح لها ابوها وشتمها جاءتني في البيت مع شروق الشمس . قالت تخلصها من ود الريس وزحمة الخطاب . فقط تعقد عليها . لا تريد منك شيئا . قالت : يتركني مع ولديّ ، لا اريد منه قليلا ولا كثيرا . قلت لها لا ندخلك في المشاكل . نصحتها ان تقبل بالامر الواقع . ابوها ولي امرها وهو حر التصرف . قلت لها ود الريس لن يعيش الى الابد . رجل مجنون وامرأة مجنونة . ما ذنبنا نحن ؟ ماذا كان

بوسعنا ان نفعل ؟ مسكين ابوها . منذ ذلك اليوم المشؤوم وهو طريح الفراش . لا يخرج ولا يقابل احدا . ماذا افعل انا او غيري اذا كان العالم قد اصيب بالخبل ؟ واتضح ان جنون بنت محمود ليس مثله في الاولين ولا الآخرين » .

قلت له وانا ابذل جهدا كبيرا حتى لا ابكي : «حسنه لم تكن مجنونة . كانت اعقل امرأة في البلد . انتم المجانين . كانت اعقل امرأة في البلد . واجمل امرأة في البلد . حسنه لم تكن مجنونة » .

ضحك محجوب . قهقه بالضحك . سمعته يقول ويضحك : « يا للعجب . يا بني آدم اصح لنفسك . عد لصوابك . اصبحت عاشقا آخر الزمن . جننت مثل ود الريس . المدارس والتعليم رهفت قلبك . تبكي كالنساء . اما والله عجايب . حب ومرض وبكاء . انها لم تكن تساوي مليما . لولا الحياء ما كانت تستاهل الدفن . كنا نرميها في البحر او نترك جثتها للصقور » .

الذي حدث بعد ذلك ليس واضحا تماما في ذهني . ولكني اذكر يديّ مطبقتين على حلق محجوب ، واذكر جحوظ عينيه ، واذكر ضربة قوية في بطني ، واذكر محجوبا جاثما على صدري . واذكر محجوبا ملقى على الارض وانا اركله بقدمي . واذكر صوته يصرخ : « مجنون . مجنون » . واذكر لغطا وصياحا وانا اضغط بيديّ على حلق محجوب ، واسمع قرقرة ، ويدا قوية تجذبني من رقبتي ، ثم وقع عصا ثقيلة على رأسي .

العالم فجأة انقلب رأسا على عقب . الحب ؟ الحب لا يفعل هذا . انه الحقد . انا عاقد وطالب ثأر وغريمي في الداخل ولا بد من مواجهته . ومع ذلك ما تزال في عقلي بقية تدرك سخرية الموقف . انني ابتدىء من حيث انتهى مصطفى سعيد ، الا انه على الاقل قد اختار وانا لم اختر شيئا . قرص الشمس ظل ساكنا فوق الافق الغربي زمنا ثم اختفى على عجل . وجيوش الظلام المعسكرة ابدا غير بعيد وثبت في لحظة واحتلت الدنيا . لو انني قلت لها الحقيقة لعلها لم تكن تفعل ما فعلت . خسرت الحرب لانني لم اعلم ولم اختر . ووقفت زمنا طويلا امام باب الحديد . انا الآن وحدي ، لا مهرب لا ملاذ لا ضمان . عالمي كان عريضا في الخارج ، الآن قد تقلص وارتد على اعقابه حتى صرت العالم انا ولا عالم غيري . اين اذاً الجذور الضاربة في القدم ؟ اين ذكريات الموت والحياة ؟ ماذا يحدث للقافلة والقبيلة ؟ اين راحت زغاريد عشرات الاعراس وفيضانات النيل وهبوب الريح صيفا وشتاء من الشمال والجنوب ؟ الحب ؟ الحب لا يفعل هذا . انه الحقد . هاانذا اقف

الآن في دار مصطفى سعيد امام باب الحديد ، باب الغرفة المستطيلة المثلثة السقف الخضر
النوافذ . المفتاح في جيبي وغريمي في الداخل على وجهه سعادة شيطانية لا شك ؟
الوصي والعاشق والغريم .

ادرت المفتاح في الباب فانفتح دون مشقة . استقبلتني رطوبة من الداخل ورائح
مثل ذكرى قديمة . انني اعرف هذه الرائحة . رائحة الصندل والند . وتحسست الطري
باطراف اصابعي على الحيطان . اصطدمت بزجاج نافذة . فتحت مصاريع الزجاج وفتح
مصاريع الخشب . فتحت نافذة واخرى وثالثة . ولكن لم يدخل من الخارج سوى مز
من الظلام . اوقدت ثقابا . وقع الضوء على عيني كوقع الانفجار . وخرج من الظلام وج
عابس زاما شفتيه اعرفه ولكنني لم اعد اذكره . وخطوت نحوه في حقد . انه غريمي
مصطفى سعيد . صار للوجه رقبة ، وللرقبة كتفان وصدر ثم قامة وساقان . ووجدتن
اقف امام نفسي وجها لوجه . هذا ليس مصطفى سعيد . انها صورتي تعبس في وجهي
مرآة . اختفت الصورة فجأة وجلست في الظلام زمنا لا ادري حسابه ارهف السمع و
اسمع شيئا . اشعلت ثقابا آخر فابتسمت امرأة ابتسامة مريرة . وجلست في واحة الض
ونظرت حولي فاذا مصباح قديم على المنضدة اكاد المسه بيدي . هززته فاذا فيه زيت
يا للعجب . اوقدت المصباح فتباعدت الظلال وتباعدت الحيطان وارتفع السقف . اوقد
المصباح واغلقت النوافذ . يجب ان تظل الرائحة حبيسة هنا . رائحة الطوب والخشب
والند الحريق والصندل ... والكتب . يا الهي . الحيطان الاربعة من الارض حتى السقف
رفوف رفوف ، كتب كتب كتب . اشعلت سيجارة وملأت رئتيّ بالرائحة الغريبة
يا له من مغفل . هل هذا فعل انسان اراد ان يبدأ صفحة جديدة ؟ سأقوضها على رأسه
ساحرقها . واشعلت النار في البساط الناعم تحت قدمي ولبثت اراقبها وهي تلتهم ملك
فارسيا على جواد يسدد رمحه نحو غزال يعدو مبتعدا . ورفعت المصباح فاذا ارضية
الغرفة كلها مغطاة ببسطة فارسية . ورأيت ان الحائط المقابل للباب ينتهي بفراغ . ذهبت
اليه والمصباح في يدي فاذا هو ... يا للحماقة ، مدفأة . تصوروا ، مدفأة انكليزية بكام
هيئتها وعدتها ، فوقها مظلة من النحاس وامامها مربع مبلط بالرخام الاخضر ورف المدف
من رخام ازرق وعلى جانبي المدفأة كرسيان فكتوريان مكسوان بقماش من الحرير المشج
بينهما منضدة مستديرة عليها كتب ودفاتر . ورأيت وجه المرأة التي ابتسمت لي قب
لحظات . لوحة زيتية كبيرة في اطار مذهب على رف المدفأة والتوقيع في الركن الا
«م. سعيد» . وانتبهت الى النار في وسط الحجرة تكاد تكوّن حريقا . خطوت نحوها ثم
عشرة خطوة عددتها وانا اخطو ودستها بحذائي حتى انطفأت . انا طالب ثأر ولكنني
لا استطيع ان اقاوم حب الاستطلاع . ساري اولا واسمع ثم احرقها فكأنها لم تكن

والكتب ... على ضوء المصباح اراها مصنفة مرتبة . كتب الاقتصاد والتاريخ والادب . علم الحيوان . جيولوجيا . رياضيات . فلك . دائرة المعارف البريطانية . غبون . ماكولي . طوينبي . اعمال برنارد شو كلها . كينز . توني . سميث . روبنسن ، اقتصاد المنافسة الغير الكاملة . هبسن ، الامبريالية . روبنسن ، مقالة عن الاقتصاد الماركسي . علم الاجتماع . علم الاجناس . علم النفس . طوماس هاردي . طوماس مان . اي جي مور . طومـاس مور ، فرجينيا وولف . وتغنشتاين . اينشتاين . برايرلي . ناميير . كتب سمعت بها وكتب لم اسمع بها . دواوين لشعراء لا اعلم بوجودهم . يوميات غردون . رحلات غلفر . كيلنغ . موسمان . تاريخ الثورة الفرنسية ، طوماس كارلايل . محاضرات عن الثورة الفرنسية ، لورد اكتن . كتب مجلدة بالجلد . كتب في اغلفـة من الورق . كتب قديمـة مهلهلة . كتب وكأنها خرجت من المطبعة لتوها . مجلدات ضخمة في حجم شواهد القبور . كتب صغيرة مذهبة الحوافي في حجم ورقة الكتشينة . توقيعات . اهداءات . كتب في صناديق . كتب على الكراسي . كتب على الارض . اية دعابة هذه ؟ ماذا يقصد ؟ اوون . فورد . ستيفان زفايغ . اي جي براون . لاسكي . هازلت . اليس في ارض العجائب . رتشاردز . القرآن بالانكليزية . الانجيل بالانكليزية . غلبرت مري . افلاطون . اقتصاد الاستعمار ، مصطفى سعيد . الاستعمار والاحتكار ، مصطفى سعيد . الصليب والبارود ، مصطفى سعيد . اغتصاب افريقيا ، مصطفى سعيـد . بروسبرو وكالبان . الطوطم والتابو . داوتي . لا يوجد كتاب عربي واحد . مقبرة . ضريح . فكرة مجنونة . سجن . نكتة كبيرة . كنز . افتـح يا سمسم ودعنا نفرق الجواهر على الناس . السقف من خشب البلوط وفي الوسط قوس يفصل الحجرة نصفين ، يسنده عمودان رخاميان لونهما اصفر ضـارب الى الحمرة . والقوس عليه قشرة من القيشاني مزركش الحواف . وانا اتصدر مائدة مستطيلة لا ادري من اي خشب هي ولكن سطحها داكن يلمع . وعلى كل من الجانبين خمس كراسي مبطنة بالجلد . والى اليمين كنبة ذات مسند واحد ، مكسوة بمخمل ازرق ، وعليها وسائد من ... لمستها بيدي ، نعم من ريش النعام . ورأيت على يمين المدفـأة وعلى يسارها اشيـاء لم الاحظها من قبل . على اليمين منضدة طويلة عليها شمعدان من الفضة فيـه عشر شموع لم تمسها النار قبلا ، وكذلك على اليسار . اوقدتها شمعة شمعة ، فاضـاءت اول ما اضاءت اللوحة الزيتية على رف المدفأة . وجه مستطيل لامرأة واسعة العينين حاجباهـا ينعقدان فوقهما . الانف اكبر قليلا مما يحب والفم يميل الى الاتساع . وادركت ان رفوف الكتب الزجاجية في الحائط المقابل للباب لا تصل الى الارض ولكنها تنتهي على جانـبي المدفأة بدواليب مدهونة بطلاء ابيض بارزة عن رفوف الكتب مقدار قدمين او ثلاثة . وكذلك على امتداد الضلع الآخر الى اليسار . وذهبت الى الصور المصفوفة على الرف . مصطفـى

سعيد يضحك ، مصطفى سعيد يكتب ، مصطفى سعيد يسبح ، مصطفى سعيد في مكان ما في الريف ، مصطفى سعيد في الزي الجامعي ، مصطفى سعيد يحذف في السيربنتاين ، مصطفى سعيد في تمثيلية الميلاد ، على رأسه تاج ، احد الملوك الثلاثة الذين جلبوا العطور والمر للمسيح ، مصطفى سعيد يتوسط رجلا وامرأة ، مصطفى سعيد يترك لحظة تمر الا وسجلها للذكرى والتاريخ . وامسكت صورة امرأة وتمعنت فيها وقرأت الاهداء بخط منمق : « من شيلا مع كل حبي » . شيلا غرينود بلا شك . قروية من ضواحي هل ، اغراها بالهدايا والكلام المعسول والنظرة التي ترى الشيء فلا تخطئه دوختها رائحة الصندل المحروق والند . حلوة الوجه فعلا ، تبتسم في الصورة وفي جيدها عقد ، من العاج بلا شك . ذراعاها مكشوفتان وصدرها بارز . كانت تعمل خادمة في مطعم بالنهار وبالليل تواصل الدراسة في البوليتكنيك . كانت ذكية تؤمن بان المستقبل للطبقة العاملة ، وانه سيجيء يوم تنعدم فيه الفروق ويصير الناس كلهم اخوة . كانت تقول له : «امي ستجن وابي سيقتلني اذا علما انني احب رجلا اسود ولكنني لا ابالي » قال : « كانت تغني لي اغاني ماري لويد ونحن عراة . كنت اقضي معها امسيات الخميس في غرفتها في كامدن تاون واحيانا تقضي الليل معي في شقتي . كانت تلحس وجهي بلسانها وتقول لي : لسانك قرمزي بلون الغروب في المناطق الاستوائية . كنت لا اشبع منها ولا تشبع مني . تتأملني كل مرة كأنها تكتشف شيئا جديدا . تقول لي : ما اروع لونك الاسود ، لون السحر والغموض والاعمال الفاضحة » . لقد انتحرت . لماذا انتحرت شيلا غرينود يا مستر مصطفى سعيد ؟ انا اعلم انك تختبيء في مكان ما من هذه المقبرة الفرعونية التي سأحرقها على رأسك . لماذا قتلت حسنه بنت محمود ود الريس الشيخ وقتلت نفسك في هذه القرية التي لا يقتل فيها احد احدا ؟

والتقطت صورة اخرى وقرأت الاهداء بخط عريض يميل الى الامام : « لك حتى الممات — ايزابيلا » . مسكينة ايزابيلا سيمور . انني احس بعطف خاص نحو ايزابيلا سيمور . مستديرة الوجه ، تميل الى البدانة ، تلبس رداء قصيرا بمقاييس ذلك الوقت ليست تماما تمثالا من البرونز كما وصفها ولكن في الوجه طيبة واضحة وتفاؤلا بالحياة تبتسم . هي ايضا تبتسم . قال انها كانت زوجة لجراح ناجح ، اما لبنتين وابن . قضت احد عشر عاما في حياة زوجية سعيدة ، تذهب للكنيسة صباح كل احد بانتظام ، وتساهم في جمعيات البر . ثم قابلته واكتشفت في اعماقها مناطق مظلمة كانت مغلقة من قبل وبالرغم من كل شيء تركت له رسالة تقول فيها : «اذا كان في السماء اله ، فانا متأكدة انه سينظر بعين العطف الى طيش امرأة مسكينة لم تستطع ان تمنع السعادة من دخول قلبها ولو كان في ذلك اخلال بالعرف وجرح لكبرياء زوج. ليسامحني الله ويمنحك من السعادة

مثل ما منحتني » . انني اسمع صوته في تلك الليلة ، داكنا ، يعلو ويخفت ، ليس فيه حزن ولا ندم ؛ ان كان في الصوت شيء فقد كانت فيه رنة فرح . « وسمعتها تقول لي بصوت متضرع مستسلم : احبك . فجاوب صوتها هتاف ضعيف في اعماق وعيي يدعوني ان اقف. لكن القمة صارت على بعد خطوة ، وبعد ذلك التقط انفاسي واستجم . ونحن في قمة الالم عبرت برأسي سحائب ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيرة مالحة وسط الصحراء . حين خطا زوجها الى منصة الشهادة في المحكمة ، تعلقت به الابصار . كان رجلا نبيل الملامح والخطو ، رأسه الاشيب يكلله الوقار ، وتجلس على سمته مهابة لا مراء فيها . كان رجلا لو وضعت معه على ميزان ، فان كفته ترجح كفتي اضعاف اضعاف . وكان شاهد دفاع لا اتهام . قال في الصمت الذي خيم على المحكمة : الانصاف يحتم عليّ ان اقول ان ايزابيلا زوجتي كانت تعلم بانها مريضة بالسرطان. كانت في الآونة الاخيرة ، قبل موتها ، تعاني من حالات انقباض حادة . قبل موتها بايام اعترفت لي بعلاقتها بالمتهم . قالت انها احبته وانه لا حيلة لها . كانت طول حياتها معي مثال الزوجة الوفية المخلصة. وانا بالرغم من كل شيء لا احس بأي مرارة في نفسي ، لا نحوها ولا نحو المتهم . انني فقط احس بحزن عميق لفقدها » .

لا يوجد عدل في الدنيا ولا اعتدال . وانا احس بالمرارة والحقد ، فبعد هؤلاء الضحايا جميعا ، توج حياته بضحية اخرى . حسنه بنت محمود ، المرأة الوحيدة التي احبتها ، قتلت ود الريس المسكين وقتلت نفسها من اجل مصطفى سعيد. وقطعت... يا للبشاعة . والتقطت صورة في اطار من الجلد . هذه آن همند بلا شك ، بالرغم من انها تلبس عباءة عربية وعقالا ، والاهداء اسفل الصورة بخط عربي مهتز : « من جاريتك سوسن » . وجه حي يتفجر صحة لا تكاد الصورة تحتويه . في كل خد غمازتان ، والشفتان ممتلئتان منفرجتان ، والعينان تتوقدان بحب الاستطلاع . واضح كل هذا في الصورة على تقادم العهد بها . « كانت عكسي تحن الى مناخات استوائية ، وشموس قاسية ، وآفاق ارجوانية . كنت في عينيها رمزاً لكل هذا الحنين . وانا جنوب يحن الى الشمال والصقيع . كانت تلك شقة في هامستد تطل على هامستد هيث تجيئها من اكسفورد آخر الاسبوع . كنا نمضي ليلة السبت عندي وليلة الاحد عندها . واحياناً تمكث الاثنين واحيانا الاسبوع كله . ثم اخذت تتغيب عن الجامعة شهراً وشهرين حتى فصلت . كانت تدفن وجهها تحت ابطي وتستنشقني كأنها تستنشق دخاناً مخدرا . وجهها يتقلص باللذة . تقول كأنها تردد طقوسا في معبد : « احب عرقك . اريد رائحتك كاملة . رائحة الاوراق المتعفنة في غابات افريقيا . رائحة المنجة والباباي والتوابل الاستوائية . رائحة الامطار في صحارى

بلاد العرب» . كانت صيدا سهلا . قابلتها اثر محاضرة القيتها في اكسفورد عن ابي نواس . قلت لهم ان عمر الخيام لا يساوي شيئا الى جانب ابي نواس ، وقرأت لهم من شعر ابي نواس في الخمر بطريقة خطابية مضحكة ، زاعما لهم ان تلك هي الطريقة التي كان الشعر العربي يلقى بها في العصر العباسي . وقلت في المحاضرة ان ابا نواس كان متصوفا ، وانه جعل من الخمر رمزاً حمله جميع اشواقه الروحية ، وان توقه الى الخمر في شعره كان في الواقع توقا الى الفناء في ذات الله ... كلام ملفق لا اساس له من الصحة ، لكنني كنت ملهما في تلك الليلة ، احس بالاكاذيب تتدفق على لساني كأنها معانٍ سامية . وكنت احس بالنشوة تسري مني الى الجمهور ، فامضي في الكذب . وبعد المحاضرة التفوا حولي . موظفون عملوا في الشرق ، ونساء طاعنات في السن مات ازواجهن في مصر والعراق والسودان ، ورجال حاربوا مع كتشنر والينبي ، ومستشرقون ، وموظفون في وزارة المستعمرات ، وموظفون في قسم الشرق الاوسط في وزارة الخارجية . وفجأة رأيت فتاة في الثامنة او التاسعة عشرة تثب نحوي وثبا مخترقة الصفوف . وطوقتني بذراعيها وقبلتني وقالت باللغة العربية : انت جميل تجل عن الوصف . وانا احبك حبا يجل عن الوصف . قلت لها بعاطفة اخافتني حدتها : واخيرا وجدتك يا سوسن . انني بحثت عنك في كل مكان ، وخفت الا اجدك ابدا . هل تذكرين ؟ قالت بعاطفة لا تقل عن عاطفتي حدة : كيف انسى دارنا في الكرخ في بغداد على ضفة نهر دجلة ايام المأمون ؟ انا ايضا تقفيت اثرك عبر القرون ولكنني كنت واثقة اننا سنلتقي . وها انتذا يا حبيبي مصطفى ، لم تتغير منذ افترقنا كأنني وهي على مسرح وحولنا ممثلون يؤدون ادواراً صغيرة . اذا بطل وهي بطلة اطفئت الانوار وساد الظلام حولنا وبقينا انا وهي وحدنا وسط المسرح ينصب علينا ضوء وحيد . ورغم ادراكي انني اكذب ، فقد كنت احس انني بطريقة ما اعني ما اقول ، وانها هي ايضا رغم كذبها فان ما قالته هو الحقيقة . كانت تلك لحظة من لحظات النشوة النادرة التي ابيع بها عمري كله . لحظة تتحول فيها الاكاذيب امام عينك الى حقائق ، ويصير التاريخ قوادا ، ويتحول المهرج الى سلطان . وفي غمرة الحلم ذاك حملتني بسيارتها الى لندن . كانت تسوق بسرعة رهيبة ، وبين الحين والحين تترك عجلة القيادة وتطوقني بذراعيها وتصرخ : ما اسعدني اذ وجدتك اخيرا . انني سعيدة سعادة لو مت في هذه اللحظة فانني لن ابالي . وكنا نقف على الحانات في الطريق ، ونشرب خمر التفاح احيانا والبيرة احيانا ، والنبيذ الاحمر والنبيذ الابيض ، واحيانا نشرب الوسكي . ومع كل كأس اقرأ لها من شعر ابي نواس . قرأت لها :

اما يسرك ان الارض زهراء
والخمر ممكنة شمطاء عذراء

ما في قعودك عذر عن معتقة
كالليل والدهـــا والام خضراء
بادرْ فان جنان الكرخ مونقة
لم تلتقفهـــا يد للحرب عسراء

وقرأت لها :

وكأس كمصباح السماء شربتها
على قبـلة او موعـد للقـــاء
اتت دونها الايام حتى كأنها
تساقط نور من فتوق سمـــاء

وقرأت لها :

اذا عبأ ابو الهيجاء للهيجاء فرسانا
وسارت راية الموت امام الشيخ اعلانا
وشبت حربها واشتعلت تلهب نيرانا
جعلنا القوس ايدينا ونبل القوس سوسانا
فعادت حربنا انسا وعدنا نحن خلانا
اذا ما ضربوا الطبل ضربنا نحن عيدانا
لفتيان يرون القتل في اللذة قربانا
ومنشا حربنا ساقٍ سبا خمرا فسقانا
يحث الكأس كي تلحق اخرانا بأولانا
ترى هناك مصروعا وذا ينجر سكرانا
فهذي الحرب لا حرب تغم الناس عدوانا
بها نقتلهم ثم بها ننشر قتلانا

هكذا وهي تطرب للشعر وتطرب للشراب ، تسقيني لذاذات الاكاذيب العذبة نسج لها خيوطا دقيقة مريعة من الاوهام . تقول لي انها ترى في عيني لمح السراب في قفارى الحارة ، وتسمع في صوتي صرخات الوحوش الكاسرة في الغابات ، واقول لها اني ارى في زرقة عينيها بحور الشمال البعيدة التي ليس لها سواحل . وفي لندن ادخلتها ، وكر الاكاذيب الفادحة ، التي بنيتها عن عمد ، اكذوبة اكذوبة . الصندل والنـد ونقش النعام وتماثيل العاج والابنوس والصور والرسوم لغابات النخل على شطآن النيل ، وتوارب على صفحة الماء اشرعتها كأجنحة الحمام ، وشموس تغرب على جبال البحر الاحمر ، وقوافل من الجمال تخب السير على كثبان الرمل على حـدود اليمن ؛ اشجار التبلدي في

كردفان ، وفتيات عاريات من قبائل الزاندي والنوير والشلك ؛ حقول الموز والبن في خط الاستواء ، والمعابد القديمة في منطقة النوبة ؛ الكتب العربية المزخرفة الاغلفة مكتوبة بالخط الكوفي المنمق ؛ السجاجيد العجمية والستائر الوردية ، والمرايا الكبيرة على الجدران ، والاضواء الملونة في الاركان . ركعت وقبلت قدمي وقالت : انت مصطفى مولاي وسيدي وانا سوسن جاريتك . هكذا كل واحد منا اختار دوره في صمت ، هي تمثل دور الجارية وانا امثل دور السيد . حضرت الحمام ثم غسلتني بالماء الذي صبت فيه ماء الورد . اوقدت عيدان الند ، واوقدت الصندل في مجمر النحاس المغربي المعلق في المدخل . لبست عباءة وعقالا وتمددت انا على السرير فجاءت ودلكت صدري وساقيّ ورقبتي وكتفيّ . قلت لها بصوت آمر : تعالي ، فاجابتني بصوت خفيض : سمعا وطاعة يا مولاي . في غمرة الوهم والسكر والجنون اخذتها فقبلت لان الذي كان قد كان بيننا منذ الف عام . وجدوها في شقتها في هامستد ميتة انتحارا بالغاز ورسالة تقول فيها : مستر سعيد لعنة الله عليك » .

وضعت صورة آن همند في مكانها الى يسار صورة مصطفى سعيد وهو يقف بين مسز روبنسن وزوجها . الاهداء في اسفل الصورة : « الى موزي العزيز — القاهرة ١٧/٤/ ١٩١٣ » . يبدو انها كانت تدلله بهذا الاسم، فهي في رسالتها ايضا تشير اليه باسم «موزي». مصطفى سعيد يبدو مجرد طفل ، ولكن وجهه عابس في الصورة. مسز روبنسن تقف الى يساره وتضع ذراعها حول كتفه وزوجها يطوقهما الاثنين بذراعه وهو وزوجته يبتسمان ابتسامة طبيعية سعيدة . وجهاهما وجها شابين لم يصلا الثلاثين . رغم كل شيء فان حب مسز روبنسن له لم يتزعزع . انها حضرت المحاكمة من اولها الى آخرها ، وسمعت كل شيء، ومع ذلك فانها تقول في رسالتها اليّ : « لا استطيع ان اعبر لك عن مدى امتناني لانك كتبت لي عن موزي العزيز . لقد كان موزي اعز شخص بالنسبة لي ولزوجي . مسكين موزي . انه كان طفلا معذبا . ولكنه ادخل على قلبي وقلب زوجي سعادة لا حد لها . بعد تلك المسألة المؤلمة وتركه لندن ، انقطعت اخباره عني ، وقد حاولت جهدي ان اعيد الاتصال به ولكنني لم افلح . مسكين موزي . ولكن ما يخفف عني قليلا الم فقده ان اعلم انه قضى السنوات الاخيرة من حياته سعيداً بينكم وانه تزوج زوجة طيبة وانجب ولدين . بلغ حبي لمسز سعيد . انها تستطيع ان تعتبرني اما . واذا كان ثمة عمل استطيع ان اؤديه لها وللطفلين العزيزين فقل لها لا تتردد في الكتابة اليّ . وكم اكون سعيدة لو انهم جميعا جاؤوا وقضوا معي عطلة الصيف القادم . انني اعيش هنا وحيدة في آيل اف وايت . وقد سافرت الى القاهرة في يناير الماضي وزرت قبر زوجي . كان ركي

يحب القاهرة حبا عظيما وقد شاء القدر ان يدفن في المدينة التي احبها اكثر من اي مدينة اخرى في العالم .

« انني اشغل نفسي بتأليف كتاب عن حياتنا – ركي وموزي وانا . كانا رجلين عظيمين ، كل بطريقته . كانت عظمة ركي في قدرته على جلب السعادة للآخرين . كان سعيدا بمعنى الكلمة ، تفيض السعادة منه الى كل من يتصل به. وكان لموزي عقل عبقري ، ولكنه كان متهورا . كان غير قادر على تقبل السعادة او اعطائها ، الا لمن احبهم واحبوه حبا حقيقيا مثلي ومثل ركي. وانا احس ان الحب والواجب يحتم عليّ ان اعرّف الناس بقصة هذين الرجلين العظيمين . سيكون الكتاب في الواقع عن ركي وموزي ، فانا لم افعل شيئا يستحق الذكر . ساكتب عن الخدمات الجليلة التي اداها ركي للثقافة العربية ، مثل اكتشافه لكثير من المخطوطات النادرة وشرحها والاشراف على طبعها . وساكتب عن الدور العظيم الذي لعبه موزي في لفت الانظار هنا الى البؤس الذي يعيش فيه ابناء قومه تحت وصايتنا كمستعمرين . وسأكتب بالتفصيل عن المحاكمة وازيل ما علق باسمه من غبار . انني اكون شاكرة اذا ارسلت لي اي شيء خلفه موزي قد يعينني على كتابة هذا الكتاب . ولعل موزي اخبرك انه جعلني وصية على شؤونه في لندن . وقد تجمع شيء من المال من حقوق الطبع لبعض كتبه وترجمة بعضها ساحولها فورا حين تخبرني بعنوان البنك الذي تريدني ان احولها له . وبهذه المناسبة اسمح لي ان اشكرك شكراً عظيما على الاشراف على عائلة موزي العزيز . ارجو ان تراسلني بانتظام وتكتب لي عن اخبارهم بالتفصيل وان ترسل لي صورتهم في رسالتك القادمة .

مخلصتك اليزابيث »

وضعت الرسالة في جيبي وجلست على الكرسي الى يمين المدفأة . وقع بصري على عدد من صحيفة « التايمز » بتاريخ الاثنين ١٩٢٧/٩/٢٦ . المواليد ، الزيجات ، الوفيات . وقع مراسيم الزواج القسيس سامسن ماجستر في الآداب . تقام مراسيم الجنازة في كنيسة ستتني الساعة الثانية بعد الظهر ، الاربعاء . الرسائل الشخصية . ايتها المحبوبة دائما ، الى متى نظل مفترقين ؟ – القلب العزيز . مستعمرة كينيا – مستر ... مساح قانوني – يعود الى اوروبي في الخامس من اكتوبر ؛ حتى ذلك التاريخ اية مراسلات تتعلق بتقارير عن عقارات في المستعمرة ، يجب ان ترسل بواسطة ... اعلانات عن دروس في ركوب الخيل . قطط سيامية زرقاء للبيع . فتاة (١٧ سنة) مهذبة ، من عائلة محترمة ، تبحث عن عمل . سيدة ورثت لقب ليدي (٣٠ سنة) ترغب في وظيفة في الخارج . اخبار الرياضة. وست هل يهزم بيرهل . وست هام يفوز . جين تني يغلب جاك دمبسي . رسالة من ظفر الله

خان يفند فيها آراء سير شمانلال ستالفاد بشأن النزاع بين المسلمين والهندوك في البنجاب . رسالة تقول : « الجاز موسيقى مرحة في عالم مظلم » . فيلان وصلا من رانغون امس ، وسارا على الاقدام من مرسى تلبري الى حديقة الحيوان . مربي ابقار هجم عليه ثور في مزرعته وبقر بطنه . رجل سرق اربع موزات حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات . الاخبار الامبراطورية والخارجية . عرض جديد من موسكو لتسديد الدين الروسي لفرنسا . فيضانات في سويسرا . الدسكفري سفينة كابتن سكت عادت من البحار الجنوبية . هر سترسمان القى خطاباً عن نزع السلاح في جنيف يوم السبت . وايضا ادلى هر سترسمان بتصريح لصحيفة « ماتان » ايد فيه خطاب الرئيس فون هندنبرغ في تانبرج الذي رفض فيه ان المانيا مسؤولة عن نشوب الحرب . المقالة الافتتاحية عن معاهدة جدة التي وقعها سير غلبرت كليتن بالنيابة عن بريطانيا العظمى والامير فيصل عبد العزيز آل سعود نيابة عن ابيه ملك الحجاز ونجد ومحمياتها . الحالة الجوية في انكلترا و ويلز ، الرياح في الغالب بين الغربي والشمال الغربي ، قوية احياناً في الاماكن المكشوفة ؛ فترات طويلة من الهدوء ولكن مع فترات من العواصف الممطرة واحياناً امطار محلية .

انها الصحيفة الوحيدة فيما يبدو . هل وجودها هنا له اي مدلول؟ ام انها محض الصدفة؟ وفتحت كراسة وقرأت على الصفحة الاولى : « قصة حياتي — بقلم مصطفى سعيد » . وفي الصفحة التالية الاهداء : « الى الذين يرون بعين واحدة ويتكلمون بلسان واحد ويرون الاشياء اما سوداء او بيضاء ، اما شرقية او غربية ». وقلبت بقية الصفحات فلم اجد شيئاً ، ولا سطرا واحدا ولا كلمة واحدة . هل هذا ايضا له مدلول ام انه صدفة محضة ؟ وفتحت ملفا فوجدت اوراقا كثيرة وسكتشات ورسومات . كان اذاً يعالج الرسم والكتابة . الرسوم جيدة تنم عن موهبة . رسوم بالالوان لمناظر في الريف الانكليزي تتكرر فيها اشجار البلوط والغدران والاوز . وسكتشات بقلم الرصاص لمناظر واشخاص من قريتنا . بالرغم من كل شيء لا يسعني الا ان اعترف بمهارته الفائقة . بكري ومحجوب وجدي وود الريس وحسنه وعمي عبد الكريم وغيرهم . وجوههم تطالعني بتعبيرات عميقة طالما احسستها ولكنني لم اكن قادرا على تحديدها . وقد رسمهم مصطفى سعيد بوضوح رؤيا وبعطف يقرب من الحب . ووجه ود الريس يتردد اكثر من الباقين . ثمانية رسوم لود الريس في تعابير مختلفة . لماذا اهتم بود الريس كل هذا الاهتمام ؟

ونظرت في قصاصات الورق وقرأت : « نعلم الناس لنفتح اذهانهم ونطلق طاقاتهم المحبوسة . ولكننا لا نستطيع ان نتنبأ بالنتيجة — الحرية . نحرر العقول من الخرافات

تعطي الشعب مفاتيح المستقبل ليتصرف فيه كما يشاء » . « تركت لندن وقد بدأت اوربا تحشد جيوشها مرة اخرى لعنف اكثر ضراوة » . « لم تكن كراهية . كان حبا عجز ان يعبر عن نفسه . احببتها بطريقة معوجة . وهي ايضاً » . « اسقف البيوت بللها رذاذ المطر . البقر والضأن في الحقول وكأنها حصوات بيضاء وسوداء . البلل الخفيف في شهر يونيو . اسمحي لي يا سيدتي. هذه الرحلات بالقطار مملة . كيف حالك ؟ من برمنغهام . الى لندن . كيف تصف المناظر ؟ شجر وحشائش . اكوام القش اليابس وسط الحقول . الأشجار والحشائش هي هي في كل مكان . كتاب لنغايو بارش . ترددت . لم تقل لا او نعم » . هل كان يصف حوادث حقيقية ام انه كان يعالج قصة ؟ « انني يامولاي يجب ان اعترض على لجوء الاتهام الى حيلة منطقية مكشوفة . ذلك انه يريد ان يؤكد مسؤولية المتهم في حوادث لم يكن مسؤولا عنها ، بناء على عمل حدث فعلا ، ثم يعود ويؤكد افتراضه فيما حدث فعلا بناء على الافتراضات السابقة . ان المتهم معترف بانه قتل زوجته ولكن هذا لا يجعله مسؤولا عن جميع حوادث انتحار النساء اللاتي انتحرن في الجزر البريطانية في خلال العشر سنوات الاخيرة » . « من ولد الخير ولّد له فراخا تطير بالسرور . ومن ولّد الشر انبت له شجرا اشواكه الحسرة وثمره الندم . فرحم الله امرءا اغضى عن الاخطاء واستمتع بالظاهر » .

ووجدت قصيدة بخط يده . اذاً كان يعالج الشعر ايضاً ، وواضح من كثرة ما شطب فيها وبدل وغير في كلماتها انه هو الآخر كان يحس برهبة امام الفن . ها هي ذي :

عربدت في الصدر آهاتُ الحزينْ
ودموع القلب فاضت من تباريح السنين
ورياحٌ عصفت بالحب والحقد الدفين

وبقايا صلوات ضمها الصمتُ العميقْ
هينمات ودعاء ونواح وزعيق
وغبار ودخان غم للساري الطريق

ونفوسٌ مطمئنات واخرى هلعَهْ
وجباه صاغرات واخرى ...

ولا بد ان مصطفى سعيد قضى ساعات طويلة يبحث عن الكلمة التي يستقيم بها الوزن. إستهوتني المعضلة ففكرت بضع دقائق . ولم يطل تفكيري . انها قصيدة ركيكة على اي

حال، قائمة على الطباق والمقارنات . ليس فيها احساس صادق ولا انفعال حقيقي . وهـذا البيت ليس اسوأ من بقية الابيات . شطبت البيت الاخير وكتبت محله :

« وخدودٌ صاغرات وجباه خاشعَهْ »

ومضيت في تقليب الاوراق فوجدت ارقاما وقصاصات ورق فيها عبارات مثل: « ثلاثة براميل زيت » ، « تناقش اللجنة موضوع تقوية قاعدة المكنة » ، « فائض الاسمنت يمكن بيعه فورا » . ثم وجدت هذه الفقرة : « وقد كان حتماً ان يصطدم طالعي بطالعها وان اقضي في السجن اعواما واضرب في الارض اعواما ، اطارد خيالها ويطاردني . وذلك هو الاحساس بانني في لحظة خارج حدود الزمن قد ضاجعت الهة الموت واطللت من كوة عينيها على الجحيم . انه شعور لا يمكن لانسان ان يتصوره . وقد ظل مذاق تلك الليلة في فمي يمنعني من اي مذاق سواه » .

سئمت قراءة الاوراق . لا شك ان ثمة اوراقا كثيرة اخرى دفينة في هذه الغرفة كأجزاء في لغز حسابي ، يريد مصطفى سعيد مني ان اكتشفها واضعها جنبا الى جنب واخرج منها صورة متكاملة تكون في صالحه . انه يريد ان يكتشف كأثر تاريخي له قيمة . لا شك في ذلك . وانا اعلم الآن انه اختارني انا لهذا الدور . لم تكن صدفة انه اثار حب الاستطلاع عندي، ثم قص عليّ قصة حياته غير كاملة لكي اكتشف انا بقية القصة . لم تكن صدفة انه ترك لي رسالة مختومة بالشمع الاحمر ، امعانا منه في شحذ خيالي ، وانه جعلني وصيا على ولديه ليلزمني الزاما لا فكاك منه ، وانه ترك لي مفتاح متحف الشمع هذا . لا حد لانانيته وغروره ، فهو رغم كل شيء يريد ان يخلده التاريخ. انما انا لا املك متسعا من الوقت للمضي في هذه المهزلة . يجب ان انهي هذه المهزلة قبل طلوع الفجر والساعة الآن جاوزت الثانية صباحا . عند طلوع الفجر ستأكل السنة النار كل هذه الاكاذيب .

هببت واقفا ، ورفعت ضوء الشموع على اللوحة الزيتية على رف المدفأة . كل شيء في الغرفة منظم مرتب موضوع في مكانه . الا صورة جين مورس . كأنه لم يدر ماذا يفعل بها. كل النساء الاخريات احتفظ بصورهن الفوتوغرافية، ولكن جين مورس هذه كما رآها هو لا كما رأتها آلة التصوير . نظرت الى اللوحة باعجاب . وجه مستطيل لامرأة واسعة العينين حاجباها ينعقدان فوقهما . الانف يميل الى الكبر والفم يميل الى الاتساع والتعبير على الوجه شيء يصعب وصفه في كلمات. تعبير رهيب ، محير. الشفتان الرقيقتان مطبقتان كأنها تعض اسنانها والفك مائل الى الامام بكبرياء . هل التعبير في العينين غضب ام ابتسام ؟ وثمة شيء شهواني يرف على الوجه كله . هذه اذاً هي العنقاء التي

افترست الغول ؟ كان صوته في تلك الليلة جريحا حزينا نادما . ألانه فقدهـا ؟ ام لانهـا جرعته المهانات؟

« كنت اجدها في كل حفل اذهب اليه، كأنها تتعمد ان تكون حيث اكون لتهينني. اردت ان اراقصها فقالت لي : لا ارقص معك ولو كنت الرجل الوحيد في العالم. صفعتها على خدها فركلتني بساقها وعضتني في ذراعي باسنان كأنها اسنان لبوة . لم تكن تعمل عملا ولا اعلم كيف كانت تعيش . اهلها من ليدز ، لم اقابلهم حتى بعد زواجي بها. كان ابوها تاجرا لا ادري في اية بضاعة ، وكان لها ، حسب قولها ، خمسة اخوة وكانت هي البنت الوحيدة. كانت تكذب حتى في ابسط الاشيـــاء. تعود الى البيت بقصص غريبة عن اشياء حدثت لها واناس قابلتهم لا يمكن ان يصدقها العقل . ولا استبعد انها كانت عديمة الاهل، كأنها شهرزاد متسولة. ولكنها كانت مفرطة في الذكاء ومفرطة في الظرف حين تشاء ، يحيط بها حيث تكون لفيف من المعجبين يرفون حولها كالذباب . وكنت احس احساسا داخليا انها رغم تظاهرها بكراهيتي ، كانت مهتمة بامري ؛ حين يجمعني واياها مجلس تراقبني بطرف عينها ، وتحصي جميع حركاتي وسكناتي ، واذا رأت مني اهتماما بفتاة ما سارعت الى اساءتهاوالقسوة عليها . كانت ماجنةبالقول والفعل ، لاتتورع عن فعل شيء ، تسرق وتكذب وتغش ، ولكنني رغم ارادتي احببتها ولم اعد استطيع ان اسيطر على مجرى الاحداث . كانت حين اتجنبها تغريني وحين اطاردها تهرب مني . كبحت مرة جماح نفسي وتجنبتها اسبوعين . اخذت ابتعد عن الاماكن التي ترتادها واذا دعيت الى حفل اتأكد انها لن تكون موجودة فيه . ولكنها وجدت طريقها الى بيـتي فجاءتني آخر ليلة سبت وآن همند معي.شتمت آن همند شتائم مقذعة فانتهرتها وضربتها فلم ترتدع . خرجت آن همند باكية وظلت واقفة امامي كشيطان رجيم، في عينيها تحدٍّ ونداء اثار اشواقا بعيدة في قلبي . لم اكلمها ولم تكلمني ولكنها خلعت ثيابهـا ووقفت امامي عارية . نيران الجحيم كلها تأججت في صدري . كان لا بد من اطفاء النار في جبل الثلج المعترض طريقي . تقدمت نحوها مرتعش الاوصال ، فاشارت الى زهرية ثمينـة من الوجوود على الرف . قالت : تعطيني هذه وتأخذني . لو طلبت مني حيـاتي في تلـك اللحظة ثمنا لقايضتها اياها . اشرت برأسي موافقا . اخذت الزهرية وهشمتها على الارض واخذت تدوس الشظايا بقدميها حتى حولتها الى فتات . اشارت الى مخطوط عربي نادر على المنضدة . قالت : تعطيني هذا ايضاً . حلقي جاف . انا ظمآن يكاد يقتلني الظمأ . لا بد من جرعة ماء مثلجة . اشرت برأسي موافقا . اخذت المخطوط القديم النادر ومزقته وملأت فمها بقطع الورق ومضغتها وبصقتها . كأنها مضغت كبدي ، ولكنني لا ابالي . اشارت الى مصلاة من حرير اصفهان اهدتني اياها مسز روبنسن عند رحيلي من القاهرة.

اثمن شيء عندي واعز هدية على قلبي . قالت : تعطيني هذه ايضاً ثم تأخذني. ترددت برهة ، ولكنني نظرت اليهامنتصبة متحفزة امامي ، عيناها تلمعان ببريق الخطر وشفتاها مثل فاكهة محرمة لا بد من اكلها . وهززت رأسي موافقا ، فاخذت المصلاة ورمتها في نار المدفأة ووقفت تنظر متلذذة الى النار تلتهمها فانعكست السنة النار على وجهها . هذه المرأة هي طلبتي وسألاحقها حتى الجحيم . مشيت اليها ووضعت ذراعي حول خصرها وملت عليها لاقبلها . وفجأة احسست بركلة عنيفة بركبتها بين فخذيّ . ولما افقت من غيبوبتي وجدتها قد اختفت .

«لبثت اطاردها ثلاثة اعوام ، قوافلي ظمأى والسراب يلمع امامي في متاهة الشوق . وذات يوم قالت لي : انت ثور متوحش لا يفتر من الطراد . انني تعبت من مطاردتك لي ومن جريي امامك . تزوجني . تزوجتها في مكتب التسجيل في فولام . لم يحضر العقد غير صديقة لها وصديق لي . حين قالت بعد المسجل : انا جين ونفرد مورس اقبل هذا الرجل مصطفى سعيد عثمان زوجي الشرعي في السراء والضراء في الفقر والغنى في الصحة والمرض – فجأة اجهشت بالبكاء واخذت تبكي بحرقة . دهشت انا لهذه العاطفة منها وكف المسجل عن اجراء المراسيم وقال لها بعطف : هوني عليك . انا اقدر شعورك . ماهي الا لحظات وينتهي كل شيء . وظلت بعد ذلك تنهنه بالبكاء ، ولما انتهى العقد اجهشت بالبكاء مرة اخرى . وجاء المسجل وربت على كتفها ثم صافحني قائلا : زوجتك تبكي من شدة السعادة . انني رأيت نساء كثيرات يبكين في زواجهن ولكنني لم ارَ بكاء بهذه الحرقة . يبدو انها تحبك حبا عظيما . اعتنِ بها . انا متأكد انكما ستكونان سعيدين . وظلت تبكي الى ان خرجنا من مكتب التسجيل . وفجأة انقلب بكاؤها الى ضحك . قالت وهي تقهقه بالضحك : يالها من مهزلة .

« وقضينا بقية اليوم في سكر . لا حفل ولا مدعوين . انا وهي والخمر . ولما ضمنا الفراش ليلا اردتها فادارت لي ظهرها وقالت : ليس الآن . انا متعبة . وظلت شهرين لا تدعني اقربها ، كل ليلة تقول : انا متعبة . او تقول : انا مريضة . لم اعد احتمل اكثر مما احتملت . وقفت فوقها ذات ليلة والسكين في يدي . قلت لها : سأقتلك . نظرت الى السكين نظرة بدت لي كأن فيها لهفة ، وقالت: هاهو صدري مكشوف امامك . اغرس السكين في صدري . نظرت الى جسمها العاري في متناول يدي ولا انالـه . جلست على حافة السرير ونكست رأسي بذلة. وضعت يدها على خدي وقالت بلهجة لم تخلُ من رقة : انت يا حلوي لست من طينة الرجال الذين يقتلون . احسست بالذلة والوحدة والضياع . وفجأة تذكرت امي . رأيت وجهها واضحا في مخيلتي وسمعتها تقول لي: انها حياتك وانت

بحر فيها . وتذكرت نبأ وفاة امي حين وصلني قبل تسعة اشهر ، وجدني سكرانا في احضان امرأة . لا اذكر الآن اية امرأة كانت . ولكنني تذكرت بوضوح انني لم اشعرباي حزن ، كأن الامر لا يعنيني في كثير ولا قليل . تذكرت هذا وبكيت من اعماق قلبي . بكيت حتى ظننت انني لن اكف عن البكاء ابدا . واحسست بحين تطوقنـي بذراعيها وتقول كلاما لم اميزه ولكن صوتها وقع على اذني وقعاً منفرا اقشعر له بدني . دفعتها عني بعنف وصرخت فيها : انا اكرهك. اقسم انني ساقتلك يوما ما . وفي غمرة حزني لم يغب عني التعبير في عينيها. تألقت عيناها ونظرت اليّ نظرة غريبة. هل هي دهشة؟ هل هي خوف ؟ هل هي رغبة ؟ ثم قالت بصوت فيه مناغاة مصطنعة : انا ايضا اكرهك حتى الموت .

« ولكن لم تكن لي حيلة . كنت صيادا فاصبحت فريسة . وكنت اتعذب وبطريقة لم افهمها كنت استعذب عذابي . بعد ذلك الحادث باحد عشر يوما تماما ، اذكرها لانني تجرعت غصصها كما يتجرع الصائم غصص شهر صوم قائظ ، كنا في حديقة رتشمند قبيل الغروب . لم تكن الحديقة خالية تماما من الناس . كنا نسمع الاصوات ونرى اشخاصـا يتحركون في ضوء الشفق . لم نتحدث الا قليلا ولم نتبادل عبارات حب ولا غزل . دون سبب وضعت ذراعيها حول عنقي وقبلتني قبلة طويلة. احسست بصدرها يضغط على صدري . وضعت ذراعي حول خصرها وجذبتها اليّ فتأوهت آهات مزقت نياط قلبي وانستني كل شيء. لم اعد اذكر شيئاً. لم اعد ارى او اعي الا هذه المصيبة الفادحة التي رماني بها القدر .هذه المرأة هي قدري وفيها هلاكي ، ولكن الدنيا كلها لا تساوي عندي حبة خردل في سبيلها . انا الغازي الذي جاء من الجنوب ، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن اعود منه ناجيا . انا الملاح القرصان وجين مورس هي ساحل الهلاك . ولكنني لا ابالي . اخذتها هنالك في العراء ، لا يهمني ان كان ذلك على مرأى ومسمع من الناس . هذه اللحظة من النشوة تساوي عندي العمر كله .

« وقد كانت لحظات النشوة نادرة بالفعل ، وبقية الوقت نقضيه في حرب ضروس لا هوادة فيها ولا رحمة . كانت الحرب تنتهي بهزيمتي دائمـا . اصفعها فتصفعني وتنشب اظافرها في وجهي ويتفجر في كيانها بركان من العنف فتكسر كل ما تناله يدها من اوانٍ وتمزق الكتب والاوراق . كان هذا اخطر سلاح عندها . كل معركة تنتهي بتمزيق كتاب مهم او حرق بحث اضعت فيه اسابيع كاملة . واحياناً يستبد بي الغضب حتى ابلغ حافة الجنون والقتل ، فاشدد قبضتي على عنقها فتسكن فجأة وتنظر اليّ تلك النظرة المبهمة ، الخليط من الدهشة والخوف والرغبة . لو انني ضغطت قيد انملة اكثر مما ضغطت لوضعت

حدا للحرب . وكانت الحرب تنتقل معنا الى الخارج . ونحن في حانة صرخت فجأة : ابن العاهرة يغازلني . وثبت على الرجل واخذت بخناقه واخذ بخناقي واجتمع علينا الناس، وفجأة سمعتها تقهقه بالضحك وراء ظهري. وقال لي احد الرجال الذين جاؤوا يفصلون بيننا : يؤسفني ان اقول لك ان هذه المرأة اذا كانت زوجتك فانك متزوج من مومس . هذا الرجل لم يكلمها بكلمة . يبدو ان هذه المرأة تحب منظر العنف . وتحول غضبي اليها ، فذهبت اليها وهي ماتزال تقهقه فصفعتها فانشبت اظافرها في وجهي كعادتها . ولم استطع جرجرتها الى البيت الا بعد مجهود والم عظيمين.

« وكان يحلو لها ان تغازل كل من هب ودب حين نخرج معا. كانت تغازل غرسونات المطاعم وسواقي الباصات وعابري السبيل . وكان بعضهم يتشجع ويستجيب ويرد بعضهم بعبارات بذيئة فاتشاجر مع الناس واضربها وتضربني في عرض الطريق . وما اكثر ما سألت نفسي ما الذي يربطني بها. لماذا لا اتركها وانجو بنفسي؟ ولكنني كنت اعلم ان لا حيلة لي وان لا مفر من وقوع المأساة . وكنت اعلم انها تخونني . كان البيت كله يفوح بريح الخيانة . وجدت مرة منديل رجل ، لم يكن منديلي . سألتها فقالت : انه منديلك . قلت لها : هذا المنديل ليس منديلي . قالت : هبه ليس منديلك . ماذا انت فاعل ؟ ومرة وجدت علبة سجائر ومرة وجدت قلم حبر . قلت لها : انت تخونينني. قالت : افرض انني اخونك . صرخت فيها : اقسم انني سأقتلك . ابتسمت ساخرة وقالت : انت فقط تقول هذا. ما الذي يمنعك من قتلي ؟ ماذا تنتظر ؟ لعلك تنتظر حتى تجد رجلا فوقي . وحتى حينئذ لااظنك تفعل شيئاً . ستجلس على حافة السرير وتبكي .

« ذات مساء داكن في شهر فبراير . درجة الحرارة عشر درجات تحت الصفر . المساء مثل الصباح مثل الليل داكن مكفهر ، لم تشرق الشمس طيلة اثنين وعشرين يوما. المدينة كلها حقل جليد ، الجليد في الشوارع في الحدائق عند مداخل البيوت . الماء تجمد في انابيبه والنفس يخرج بخارا من الافواه . الاشجار عارية تنوء اغصانها تحت وطأة الثلج. وانا دمي يغلي وفي رأسي حمى . في ليلة مثل هذه تحدث الاعمال الجسيمة . هذه ليلة الحساب . مشيت من المحطة الى الدار احمل المعطف على ساعدي ، جسمي ساخن والعرق يتصبب من جبهتي . كان الجليد يقرقع تحت حذائي وانا اطلب البرد . اين البرد؟ وجدتها عارية مستلقية على السرير ، فخذاها بيضاوان مفتوحتان ، ابتسامتها مفعمة وعلى وجهها شيء مثل الحزن ، في حالة تأهب عظيم للاخذ والعطاء . حن قلبي اليها اول ما رأيتها ، واحسست بالدفء الشيطاني تحت الحجاب الحاجز . حين احسه اعلم انني مسيطر على زمام الموقف . اين كان هذا الدفء كل هذه الاعوام ؟ قلت لها بصوت واثق كدت انساه

من طول ما فقدته : هل كان معك احد ؟ اجابتني بصوت اثر فيه وقع صوتي : لم يكن معي احد . هذه الليلة لك انت وحدك . انا انتظرك منذ وقت طويل .

« احسست انها تصدقني لاول مرة . هذه الليلة ليلة الصدق والمأساة . اخرجت السكين من غمده . جلست على حافة السرير وقتا انظر اليها . كنت ارى وقع نظراتنا فحيا ملموسا على وجهها . نظرت في عينيها فنظرت في عينيّ وتماسكت نظراتنا واشتبكت ، فكأننا فلكان في السماء اشتبكا في ساعة نحس . وطفت نظراتي عليها فحولت وجهها عني ، ولكن الاثر ظهر في وسطها فزحزحته يمنة ويسرة ورفعته قليلا عن السرير ثم استقرت به ورمت ذراعيها في تراخٍ وعادت تنظر اليّ . نظرت الى صدرها فنظرت هي ايضا الى حيث وقع بصري على صدرها ، كأنها اصبحت مسلوبة الارادة تتحرك حسب مشيئتي . نظرت الى بطنها فتابعتني وبدا الم خفيف على وجهها . وكنت ابطىء فتبطىء واعجل فتعجل . اطلت النظر الى فخذيها البيضاوين المفتوحتين ، ادلكهما بعيني وينزلق نظري على السطح الناعم الاملس الى ان يستقر هنالك في مستودع الاسرار ، حيث يولد الخير والشر . ورأيت وجهها تعلوه حمرة ، وجفنيها ينكسران كأنها اصبحت غير قادرة على السيطرة عليهما . رفعت الخنجر ببطء فتابعت حده بعينيها ، واتسعت حدقتا العينين فجأة واضاء وجهها بنور خاطف كأنه لمع برق . لبثت تنظر الى حد الخنجر بخليط من الدهشة والخوف والشبق . ثم امسكت الخنجر وقبلته بلهفة . وفجأة اغمضت عينيها ونمطت في السرير رافعة وسطها قليلا فاتحة فخذيها اكثر . وتأوهت وقالت : ارجوك ياحلوي . هيا . انا مستعدة الآن . لم استجب لندائها فتأوهت آهة اكثر الما . وانتظرت . بكت . خرج صوتها خافتا لا يكاد يسمع : ارجوك يا حبيبي .

« ها هي ذي سفني يا حبيبتي تبحر نحو شواطىء الهلاك . ملت عليها وقبلتها . وضعت حد الخنجر بين نهديها ، وشبكت هي رجليها حول ظهري . ضغطتُ ببطء . ببطء . فتحتْ عينيها . اي نشوة في هذه العيون . وبدت لي اجمل من كل شيء في الوجود . قالت بألم : يا حبيبي . ظننت انك لن تفعل هذا ابدا . كدت ايأس منك . وضغطتُ الخنجر بصدري حتى غاب كله في صدرها بين النهدين . واحسست بدمها الحار يتفجر من صدرها . واخذت ادعك صدرها بصدري وهي تصرخ متوسلة : تعال معي . تعال معي . لا تدعني اذهب وحدي .

« وقالت لي : احبك — فصدقتها . وقلت لها : احبك — وكنت صادقاً . ونحن شعلة من اللهب ، حواف الفراش السنة من نيران الجحيم ورائحة الدخان اشمه بانفي وهي تقول

لي : احبك يا حبيبي ، وانا اقول لها : احبك يا حبيبتي . والكون بماضيه وحاضره ومستقبله اجتمع في نقطة واحدة ليس قبلها ولا بعدها شيء » .

دخلت الماء عارياً تماما كما ولدتني امي. احسست برجفة اول ما لامست الماء البارد ، ثم تحولت الرجفة الى يقظة . النهر ليس ممتلئاً كأيام الفيضان ولا صغير المجرى كأيام التحاريف . لقد اطفأت الشموع واغلقت باب الغرفة واغلقت باب الحوش دون ان افعل شيئا . حريق آخر لا يقدم ولا يؤخر . تركته يتحدث وخرجت. لم ادعه يكمل القصة. فكرت ان اذهب واقف على قبرها . فكرت ان ارمي المفتاح حيث لا يجده احد . ثم عدلت . اعمال لا معنى لها . ومع ذلك لا بد من القيام بعمل ما . وقادتني قدماي الى الشاطىء وقد لاحت تباشير الفجر في الشرق . سانفس عن غيظي بالسباحة. كانت الاشياء على الشاطئين نصف واضحة ، تبين وتختفي ، بين النور والظلام. كان النهر يدوي بصوته القديم المألوف ، متحركاً كأنه ساكن . لا صوت غير دوي النهر وطقطقة مكنات الماء غير بعيد. واخذت اسبح نحو الشاطىء الشمالي . وظللت اسبح واسبح حتى استقرت حركات جسمي مع قوى الماء الى تناسق مريح . لم اعد افكر وانا اتحرك الى الامام على سطح الماء . وقع ضربات ذراعيّ في الماء ، وحركة ساقيّ ، وصوت زفيري بالنفس ، ودوي النهر ، وصوت المكنة تطقطق على الشاطىء . لا اصوات غير ذلك . ومضيت اسبح واسبح وقد استقر عزمي على بلوغ الشاطىء الشمالي . هذا هو الهدف . كان الشاطىء امامي يعلو ويهبط ، والاصوات تنقطع كلية ثم تضج . وقليلا قليلا لم اعد اسمع سوى دوي النهر . ثم اصبحت كأنني في بهو واسع تتجاوب اصداؤه . والشاطىء يعلو ويهبط . ودوي النهر يغور ويطفو . كنت ارى امامي في نصف دائرة . ثم اصبحت بين العمى والبصر . كنت اعي ولا اعي . هل انا نائم ام يقظان ؟ هل انا حي ام ميت ؟ ومع ذلك كنت ما ازال ممسكاً بخيط رفيع واهن: الاحساس بان الهدف امامي لا تحتي ، وانني يجب ان اتحرك الى امام لا الى اسفل . لكن الخيط وهن حتى كاد ينقطع ، ووصلت الى نقطة احسست فيها ان قوى النهر في القاع تشدني اليها . سرى الخدر في ساقيّ وفي ذراعيّ . اتسع البهو وتسارع تجاوب الاصداء . الآن . وفجأة ، وبقوة لا ادري من اين جاءتني ، رفعت قامتي في الماء . سمعت دوي النهر وطقطقة مكنة الماء . تلفت يمنة ويسرة فاذا انا في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب . لن استطيع المضي ولن استطيع العودة. انقلبت على ظهري وظللت ساكنا احرك ذراعيّ وساقيّ بصعوبة بالقدر الذي يبقيني طافيا على

السطح . كنت احس بقوى النهر الهدامة تشدني الى اسفل وبالتيار يدفعني الى الشاطىء الجنوبي في زاوية منحنية . لن استطيع ان احفظ توازني مدة طويلة . ان عاجلا او آجلا ستشدني قوى النهر الى القاع . وفي حالة بين الحياة والموت رأيت اسراباً من القطى متجهة شمالا . هل نحن في موسم الشتاء او الصيف ؟ هل هي رحلة ام هجرة ؟ واحسست انني استسلم لقوى النهر الهدامة . احسست بساقيّ تجران بقية جسمي الى اسفل . في لحظة لا ادري هل طالت ام قصرت تحول دوي النهر الى ضوضاء مجلجلة ، وفي اللحظة عينها لمع ضوء حاد كأنه لمع برق . ثم ساد السكون والظلام فترة لا اعلم طولها ، بعدها لمحت السماء تبعد وتقرب والشاطىء يعلو ويهبط . واحسست فجأة برغبة جارفة الى سيجارة . لم تكن مجرد رغبة . كانت جوعا . كانت ظمأ . وقد كانت تلك لحظة اليقظة من الكابوس . استقرت السماء واستقر الشاطىء وسمعت طقطقة مكنة الماء ، واحسست ببرودة الماء في جسمي . كان ذهني قد صفا حينئذ ، وتحددت علاقتي بالنهر . انني طافٍ فوق الماء ولكنني لست جزءا منه . فكرت انني اذا مت في تلك اللحظة فانني اكون قد مت كما ولدت ، دون ارادتي . طول حياتي لم اختر ولم اقرر . انني اقرر الآن انني اختار الحياة . سأحيا لان ثمة اناسا قليلين احب ان ابقى معهم اطول وقت ممكن ولان عليّ واجبات يجب ان أؤديها . لا يعنيني ان كان للحياة معنى او لم يكن لها معنى . واذا كنت لا استطيع ان اغفر فساحاول ان انسى . سأحيا بالقوة والمكر . وحركت قدميّ وذراعيّ بصعوبة وعنف حتى صارت قامتي كلها فوق الماء . وبكل ما بقيت لي من طاقة صرخت ، وكأنني مثل هزلي يصيح في مسرح : « النجدة . النجدة » .